بوريس باسترناك

ذِكْرَياتُ الصِّبَا والشَّبَاب

سيرة

ترجمة

د. نظمي لوقا

الكتاب: ذِكْرَيَاتُ الصِّبَا والشَّبَاب (سيرة)

الكاتب: بوريس باسترناك

ترجمة: د. نظمي لوقا

الطبعة: ٢٠٢٣

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة - جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

APA

http://www. bookapa.com **E-mail: info@bookapa.com**

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

باسترناك ، بوريس

ذِكْرَيَاتُ الصِّبَا والشَّبَاب (سيرة)/ بوريس باسترناك, ترجمة د. نظمي لوقا

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

١٦٥ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولى: ٩ – ٦٨٥ – ٩٩١ – ٩٧٧– ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع : ٥١٦٨ / ٢٠٢٣

ذِكْرَيَاتُ الصِّبَا والشَّبَاب

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

مقدمة

إن ترجمة حياة شاعر أو سيرته الحقيقية، إنما ينبغي أن يلتمسها الباحث في أثر ذلك الشاعر فيمَن قرءوا أشعاره.

وليست سيرة الشاعر هي تاريخ مولده واسم مسقط رأسه؛ وإنما سيرته هي تلك الشخصية الشاعرة، وذلك التغيُّر الوجداني الذي يشعر به قارئه، فلولا ذلك التكوين الفني الخاص، لما عرف القارئ هذا التغيُّر؛ أما المكان والزمان والأحداث، فإن هي إلا مظاهر مادية عرَضية لا يختص بها تكوين الشاعر، وإنما هي مشاع بينه وبين سائر مواطنيه في جيله.

وباسترناك نفسه هو الذي رأى هذا الرأي في صدد بيان تأثير شاعر آخر فيه، وهذا الشاعر هو الألماني راينر ماريا ريلكه؛ فأسلوبهما في الإحساس والتصوير واحد؛ لأنهما ينظران إلى العالم باعتباره حركة تغيُّر مستمرة، ويريان في الفنان ذلك السلطان العاطفي الخارق الذي يحوّل الأحداث المادية الواقعة تحت حِسه إلى اختلاجات تتهلّل لها الروح.

وهذا النحو من التفكير غرسته في باسترناك ظروف نشأته ومولده من أبوين فنانين؛ فأبوه هو الرسام الشهير ليونيد باسترناك، وأمه موسيقية عظيمة اسمها روزا كوفمان، ومسقط رأس ابنهما البكر بوريس هو مدينة موسكو.

وموسكو عام١٨٩٠ مدينة كمدائن السحر، تحفل الحركة الفكرية والفنية فيها بالبدائع غير المعتادة، فأتاحت بيئة بوريس له ما لا يتاح غالبًا لطفلٍ من سنه، أتاحت له شيئًا أكثر من ملاعب الطفولة ومراتعها المألوفة؛ فالموسيقى تخالط الهواء الذي يستمد منه أنفاسه، مخالطة واقع لا مخالطة مجاز! وناهيك بمعزوفات صديق الأسرة النابغ سكريابين. ومن الرسوم التي عَنى والده بإبداعها؛ صور النخبة الأفذاذ في زمنه وموطنه، ومنهم ليوتولستوي، وريلكه، وبعد سنوات سنراه يتناول أحدث من غيروا تاريخ الأرض من قبيل لينين وأينشتاين.

ولأمر ما، كان اتصال بوريس في طفولته بالفحلين تولستوي وريلكه اتصالاً قصير الأمد، بيد أنه بعيد الأثر في تكوينه الفني، وكان لشغفه – منذ نعومة أظافره – بالنباتات، وهوايته جمعها وتأملها ودراستها؛ أكبر الأثر في أسلوبه الشعري؛ فهو أسلوب مزدهر يانع، قد يكون نثرًا، ولكنه النثر الذي ينطوي على شاعرية، ونضارة، وتناسق... فهو شاعر حين ينظم، وحين يسترسل.

وفي بيئة الفن والجمال، عبد باسترناك الكمال وطبعت نفسه على طلبه؛ لا يقنع بشيء دونه، ولا يجامل نفسه في تحصيله، وبوحي من هذه الشراهة الفكرية هجر دراسة القانون إلى دراسة الفلسفة، وهاجر من موسكو الروسية إلى ماربورغ الألمانية.

وفي ماربورغ، تتلمذ على عالمها الفيلسوف هرمان كوهن، فوجد لديه شبع جوعه إلى المنهج العلمي، وإلى المثالية.

فذلك الأستاذ من أقطاب الاتجاه الكانتي[1] الحديث. وهناك أيضًا تعرّف إلى الدراسة الأخلاقية التي تنحو نحوًا اجتماعيًا.

ومما يذكر لبوريس باسترناك بالتقدير والإعجاب، إنه لم يستطع الاستجابة لناحية واحدة من تأثير الأستاذ كوهن.

وكان كلاهما يهودي الأرومة، وكان والد بوريس متصلاً بالحركة اليهودية، ولكن بوريس لم يستسغ ولاء أستاذه الشديد للتراث اليهودي بل كان باسترناك يحس منذ البداية بوحدة الثقافة الإنسانية، والأوربية منها بوجه خاص؛ ولا سيما في الفن، وكانت زيارته لإيطاليا ومتاحفها في باكورة شبابه من دواعي تثبيت هذا الإحساس، حتى صار عقيدة.

وعندما اندلعت نيران الحرب العالمية الأولى، كتب بوريس باسترناك في ترجمة حياته يقول أن أترابه الذين ذهبوا إلى ميدان القتال، كانوا في الرابعة عشرة تقريبا سنة ١٩٠٥، وهي سنة الحرب الروسية اليابانية التي انتهت بتدمير الأسطول الروسي ورسوخ مكانة اليابان كدولة عظمى، وهم في الرابعة والعشرين تقريبا سنة ١٩١٤.. فوافق مرحلة البلوغ ومرحلة الشباب لديهم تاريخان داميان في حياة وطنهم.

ولم تُتح لبوريس خدمة الحرب في الميدان؛ لأن ساقًا من ساقيه كانت قد هيضت في زمن طفولته، فأُعفي من الخدمة العاملة في خط النار،

()[1] نسبة إلى الفيلسوف الألماني (١٧٢٤-١٨٠٤) إيمانويل كانت، وهو الذي ذهب إلى القول بأننا لا ندرك ماهية الأشياء، ولكن ظواهرها الحسية في الزمان والمكان. وقال أيضًا بالحرية وخلود النفس ووجود الله. ولهذا الفيلسوف مؤلفات فلسفية قيمة، منها "نقد العقل النظري" و"نقد العقل العملي" و"نقد الحكم العقلي."

وقضى مدة الخدمة العسكرية مُسهمًا في المجهود الحربي بمصنع من مصانع الذخيرة في جبال الأورال.

ولكن الإعفاء من معارك الحرب، لم يكن معناه إعفاءه من كل ضروب المعارك.. فقبيل مغادرته موسكو كانت هناك حرب بين المدارس الأدبية والفنية، وكانت المدرسة الناشئة أو الصاعدة يومئذ هي مدرسة "المستقبليين"، وكان شعارهم كما يدل عليه اسمهم هو إعلان الحرب على تراث الماضي وتقاليده بلا تمييز، وبلا حياء، وفي عنفوان طاقة الشباب المتدفقة التي لا تعرف إلا الاندفاع، ولم يعرفوا هوادة في تلك الحرب الطائشة، فلم يسلم من هجومهم مواطنوهم من أساطين الأدب والفن في روسيا، ولا التقليديون من رجال الفن في أوروبا.. بل ولا رجال مذهبهم في إيطاليا، الذين يدينون لهم بفكرة المستقبلية نفسها.

وأنبغ هؤلاء المستقبليين الثائرين، هو فلاديمير ماياكوفسكي الذي كان باسترناك يكبره بسنوات قلائل، وقد أضفى عليه باسترناك حبًا عظيمًا يكاد يبلغ حد العبادة! وهذا الشغف العظيم هو الذي ألغى الهوة العميقة التي تكون عادة بين شاعر غير مكترث بالسياسة صراحة مثل باسترناك، وبين شاعر نادى به النظام الشيوعي أميرًا متوّجًا على الأدباء الثوريين.

وقد انتحر ماياكوفسكي في سنة ١٩٣٠.

وفي مطلع الثورة اعتبر باسترناك أحد "السلبيين" الذين لا يتجاوبون مع النظام الاجتماعي الجديد؛ فانطوى على وجدانه الفني، وانصرف إلى الشعر الغنائي، والقصة القصيرة، واشتغل على الخصوص بترجمات بديعة

لآثار شعراء عِظام من قبيل فيرلين، وجيته، وشيللى، وشكسبير، وعندما أتيحت له الفرصة للخطابة أمام اتحاد الكتاب السوفييت في مؤتمرهم المعقود سنة ١٩٣٦، لم ينحرف عن مفهوم الفن كما يفهمه، حتى إذا كتب روايته الكبرى "دكتور زيفاجو" جاءت آية على صدقه ورعايته لأمانة الكلمة، غير مُبال بما يكون وراء الصدق الفني الأمين من تعرض للبلايا والأرْزاء.

كان يؤمن بالعبقرية الفنية الذاتية، وعلى هذا الأساس فهم تاريخ البشرية، وعلى هذا الأساس فهم الناس، وعلى هذا الأساس أولع بماياكوفسكي ولوعًا شديدًا، وكان يراه أجلّ وأعظم أصالة من الارتباط ببدعة المستقبلية السطحية، وطالما ناشده أن يعلن على رؤوس الأشهاد – بعد نجاح الثورة– تخليه عن هذه البدعة.

وإذا كان باسترناك قد أهدى سيرته الخاصة إلى الشاعر الألماني راينر ماريا ريلكه؛ فهذا في حد ذاته دليل حاسم على اتجاه باسترناك إلى اعتبار الفن أثمن تراث بشري، لأنه يمثل لنا الإنسانية في صورة دائمة التجدد؛ صورة تخلقها العاطفة وتجعل منها أملاً جديدًا لحياة الناس؛ وهو اتجاه تحتاج المجاهرة به في روسيا يومئذ إلى شجاعة فائقة، لمجافاته للتصور المادي والتفسير المادي للتاريخ.

والناظر في أشعار باسترناك على الخصوص يدرك صورة نفسه؛ فالشعر هو الفن الذي ثابر باسترناك على التعبير به عن تطوره الذاتي منذ بداية شبابه إلى نهاية عمره..

إن حدثًا مألوفًا يتكرر كل يوم، مثل وقوف فتاة على عتبات النضوج، كافٍ جدًا لإمداد باسترناك بموضوع قصة بديعة تنبض بالإحساس.

وإذا اتفق له أن ينظم – في أحوال نادرة – قصيدة ذات مضمون سياسي، فإنما يُقدِم على ذلك ليؤكد مرة أخرى حقيقة تحتاج إلى توكيد مستمر: "إن حيوية الشعر وفضيلته، شأنها شأن حيوية كل فن وفضيلته، تقومان على مدى اقتدار الفنان أو الشاعر على معاناة تجربته الخاصة – كبرت تلك التجربة أم صغرت – وهو مستقل تمام الاستقلال عن طغيان اليمين أو استبداد اليسار..!".

إن أشعاره الأولى تنُم عن العنفوان والحساسية في زمن الشباب، أما أشعاره المتأخرة، فتدل على عمق فهمٍ للإنسان وظروف حياته القاسية، وعلى قوة التجلُّد أمام قسوة الحقيقة ومرارة المعرفة!

إن شعر باسترناك ونثره الفني ينتميان إلى ذلك الكيان الذي ينبع من حياتنا، وتعتمد عليه حياتنا في التماس البقاء وتحدي الفناء..

وعلى هذا الكيان العجيب يطلق باسترناك اسم "الفن".

المترجم

القسم الأول

أنوار الصباح

كان القطار السريع على وشك مغادرة محطة كورسك، ذات صباح يوم حار من أيام صيف سنة ١٩٠٠، وإذا برجُل يعتمر قبعة سوداء من قبعات التيرول يبرز من نافذة ذلك القطار، وكانت بجواره امرأة طويلة القامة، لعلها أمه، أو أخته الكبرى.. وتحدث الاثنان إلى أبي في أمور يبدو أن ثلاثتهم يهتمون بها اهتمامًا شديدًا، وتبادلت المرأة مع أمي بضع كلمات باللغة الروسية، أما الرجل الغريب فلم يكن يتحدث إلا باللغة الألمانية.

ومع أنني كنت أعرف اللسان الجِرماني معرفة جيدة، إلا أني لم أسمع في حياتي أحدًا يتحدث بتلك اللغة كما يتحدث بها ذلك الرجل، ولهذا السبب انطبعت صورة ذلك الرجل في ذاكرتي انطباعًا أشبه بانطباع مخلوقات الخيال التي تتميز تميزًا واضحًا من أخلاط مخلوقات الواقع التي تحف بها، وتم ذلك الانطباع في برهة وجيزة، بين دقتي ناقوس المحطة، على إفريزها المكتظ بالناس.

وفي موضع آخر من رحلتنا، برز الألمانيان مرة أخرى، لا في النافذة هذه المرة، بل في داخل مقصورتنا، وكان حديثهما مُنصبًا على عدم ثقتهما

بتيقظ مُحصِّل القطار كي يطلب من السائق الوقوف في محطة آل تولستوي، وأن أقرب المحطات إلى تلك المحطة وهي محطة كوزلوفسكا، ليس من المحتمل أن يقف بها القطار السريع.

ومما تلا ذلك من الحديث، أدركت أنهما يزمعان زيارة صوفيا اندريفنا بمناسبة قرب رحيلها إلى موسكو لشهود حفلاتها الموسيقية السيمفونية.. ثم انتقل محور الكلام إلى موضوعٍ سيمفونية جديدة طويلة معقدة، كثيرًا ما سمعت في دارنا وأنا صغير نقاشًا حولها، من غير إشارة إلى شخصية مؤلفها الذي كان يتخذ لنفسه اسمًا مستعارًا هو "الكونت ل.ن".

هذا الألماني النحيل الفضي الشعر، ذكّرتني به بعد ذلك صور له بريشة أبي، وبريشة ريبان وغيرهما من كبار رسامي العصر. وقد اقترنت صورته المهيبة في نفسي بصورة شيخ آخر كنت أراه في فترات متقاربة، وهو نيقولاي نيقولايفتش جاي.

وبعد برهة من نقل الحديث، استأذن الألمانيان وثابا إلى مقصورتهما في القطار. وسرعان ما اهتز القطار، وسمع صرير الفرامل القوية، ثم كف القطار عن السير، ونظرنا من النافذة وإذا أجَمة من الأشجار العالية، وسماء مُثقلة بالسحب وأمام الخميلة عربة خاوية يجرها زوج من الجياد، واندفعت العربة لملاقاة الألمانيين اللذين هبطا من القطار.

ولوحا بمنديليهما لنا، فلوحنا لهما. وانهمك مساعد المحصل بسترته الحمراء وأكمامه الفضفاضة في إنزال متاعهما، ثم سوى حزامه العريض حول خاصرته، ولوّح للسائق واستقل القطار، ثم سرعان ما انطلقت

القاطرة مرة أخرى، واختفى المشهد بما فيه ومن فيه عن أنظارنا.. إلى الأبد في أغلب الظن.

ومرت على تلك الرحلة ثلاث سنوات...

وكان الشتاء ضاربًا بجدرانه على كل مظاهر الطبيعة؛ فالناس كلهم متدثرون بالفراء الأبيض، والثلج الأبيض يغطي جميع الكائنات، ومربعات الضوء تنتقل مع مصابيح العربات بسرعة فائقة على طول الشارع في صمت.

وكانت شرنقة التقاليد الموروثة قد تمزقت، وخرج منها الطفل ابن العاشرة ليدخل في طور جديد كل الجِدة، وهو طور "الشخصيات" ذات التأثير البارز، وقد قضى هذا الطور الجديد في تمرُّد صريح على المرحلة التقليدية السابقة.

وفي بداية تلك المرحلة، كان تأثير الطبيعة على الطفل الصغير عميقًا للغاية، يؤيد كل التأييد ما نادى به جوميليوف من وجود حاسة سادسة لدى الحيوانات ولدى الإنسان، وأن هذه الحاسة هي التي يحس بها الإنسان الطبيعة إحساسًا مباشرًا.

وكان أول مظهر من مظاهر ذلك الشغف القوى بالطبيعة، تعلق الصبي بعلم النبات، وجمع نماذج منوعة منه، يصنفها مرتبة حسب أشكالها، ويثبت على كل منها اسمه، وكان مجرد ذكر ذلك الاسم كافيًا لكي يبعث إلى وعيه منظرًا تطمئن إليه عينه، ورائحة ترتاح إليها خياشيمه، ارتياح العارف الحميم.

وقبل ذلك العهد، في ربيع سنة ١٩٠١، أقامت حدائق الحيوان عرضًا غريبًا قوامه كتيبة من فارسات داهومي، وشهد الصبي ذلك العرض، فاقترنت في سريرته بإحساساته الغامضة الأولى بالأنوثة؛ إحساسات بالجسد الأنثوي العاري، والفاقة، والمعاملة الزرية.. وعلى قرع الطبول في نغمات بدائية كموسيقى الغابات والكهوف، كانت الخيول تتحرك وعليها بنات خط الاستواء عاريات النحور والصدور، لا يسترهن إلا ورقة توت حقيقة لا مجازًا!. واقشعر بدن الصبي بمزيج من التوفز، والتقزز، والدهشة المنكرة لاستخدام اللحم البشري وكأنه لحم سلالة أخرى من مملكة الحيوان!

وكان هذا المشهد هو السبب الأول في عبوديتي المبكرة للإشكال والشكليات؛ لأني رأيت في هؤلاء النسوة عبودية مستتمة الشكل، فارتبط الشكل عندي بالمضمون ارتباطًا قويًا..

وفي صيف سنة ١٩٠٣، كنا نقيم في اوبلنسكي، وكان آل سكريابين يقيمون هناك أيضًا، في دار ملاصقة لدارنا، وفي ذلك الصيف كادت مربية أصدقاء لنا يقيمون قرب النهر أن تغرق، فأسرع طالب شاب أدّى وجوده هناك إلى نجدتها، فأنقذها ولكنه لقي حتفه في اللُّجة..

وجن جنون الفتاة إزاء هذه الفاجعة التي زلزلت أساس عقلها، وأقدمت على محاولة الانتحار في ذلك الموضع بعينه جملة مرات؛ وفي كل مرة تُكتب لها النجاة رغم أنفها.

وفي ذلك الصيف أيضًا كُسرت ساقي.. هيضت عظامها وأنا ألعب لاهيًا، وجبرها الطبيب ولم أزل أطلع بعدها، فكان ذلك الكسر سببًا في

تجنيبي نيران الحربين العالميتين جميعًا. ولزمت الفراش، وساقي في الجبس الباريسي، وذات مساء اشتعلت النار في بيت أصدقائنا، وهو دار من الخشب مثل سائر دور تلك المنطقة. ونشرت الريح ألسنة اللهب، وانطلقت صفارات النذير بالحريق كأنها وحش مجنون.

وفي تلك الليلة اشتعل الشيب في رأس والدي المسكين الذي كان قادمًا في مركبته مع الطبيب، فأبصر عبر الغابة ومسالكها على مسافة ثلاثة أميال ألسنة اللهب، وشهد سقوط المدخنة العالية وسط سحب الدخان القرمزي والبنفسجي الداكن، فألقي في روعه أن النار أتت على زوجته الحبيبة والأطفال الثلاثة... فلا قبل لها بحمل مائة رطل من الجبس مع صبي كبير، ولئن كتب لها أن تحمله، فسوف تضار الساق وتتخلف عنها –لا محالة– عاهة مُقعِدة مدى الحياة!

ولن أزيد القارئ وصفًا لتلك المشاهد والمشاعر، فلا شك أن القارئ في غِنى عن ذلك بمخيلته وبديهته التي تسعفه ولا شك بكل ما يصبو إليه من أحاسيس الفزع والروع.

وكان الصبي في تلك الفترة شغوفًا بالأساطير والتهاويل، ويلذ له سماع الحكايات، ولا يعنيه في كثير أو قليل أن تكون لها خاتمة معقولة أو تجافي المعقول.

أما المنازِه، فأحبها إلى نفسه مالم يستطع أن يصل إليه سعيًا على قدميه.. فشغفه عظيم بالمجهول، يزوّق له خياله أكنافه في روعة تستثير فضوله.

ولذا، عندما أزف الشتاء من سنة ١٩٠٤، وكانت مربعات الضوء تتحرك في الشارع بسرعة مع مصابيح العربات التي لا تلوي على شيء نحو غايتها، كانت مشاعري كلها متجهة إلى حروف اسم "سكريابين" المكتوبة على الجدران، بمناسبة الحفل الموسيقي الكبير. وأنا عائد في المساء من المدرسة إلى البيت، والثلج يتساقط على ظهري، وأنا لا أحفل به..

وعثرت بإعلان كبير، فحملته فوق حقيبة كُتبي، ودخلت به الدار، وقطرات الجليد الذائب تقطر منه ومني، فقد كنت أعبد ذلك الاسم وما يحيط به من مكانة في فن الموسيقى عبادة تبعث في أوصالي رعدة الحمى، بل هي أشد من رعدة الحمى قسوة وعُراما!

جارنا هو...

ولكن ما كنت أبصر به حتى تفر الدماء من وجهي، ويعتريني الشحوب! ولم أجسر على مخاطبته بادئًا.. وفي كل مرة وجه فيها سكريابين إليّ الخطاب، كنت أتلعثم، ويخونني صوابي، فأجيبه بكلام غريب لا علاقة له بسؤاله إطلاقًا، ويرتفع من حولي ضحك الجميع، وأكاد أذوب خِزيًا... وعبثًا أحاول تذكر السؤال، أو تذكر الجواب الذي أدليت به فأضحكهم... وأنا ساهٍ عن سماع ما قلت!

وكنت أعلم يقينًا أنه يدرك سر لعثمتي واضطرابي، ولكنه لم يحاول مرة واحدة أن يمد لي يد العون، وكان معنى هذا طبعًا أنه لا يشعر بالرثاء لي والشفقة علي، وكان هذا الشعور بالذات هو الذي يحرقني الظمأ إليه، فلا أقع من ريه إلا على سراب...

ذلك الظمأ الذي لا يؤذن بارتواء، هو الذي كان يحميني دائمًا من الإحساس بالأسى الموجع الذي تلهمه موسيقى سكريابين.

وقبيل رحيله إلى إيطاليا، جاء لتوديعنا، وعزف لنا عزفًا لا يمكن أن أنقل وصفه مهما حاولت، ثم تناول العشاء معنا، وشرع يخوض في أحاديث فلسفية، أفضت به إلى السخرية، ثم إلى المزاح، ولكني شعرت شعورًا خفيًا لا يمكن تعليله، أنه كان فريسة للسأم طول الوقت.

وبدأت تحيات التوديع وتبادل التحيات والتمنيات، واستمر ذلك طول فترة هبوط السلم إلى البهو السفلي، وهناك تكررت التحيات والتمنيات طول الفترة التي استغرقها إحكام أزرار معطفه الفضفاض، وكانت العُري عصية فاحتاج ذلك إلى وقت غير قصير.

وانصفق الباب، ودار المفتاح في القفل دورتيه..

وعندما مررنا بالبيانو الذي كأنه لم يزل يتحدث عن عزفه المعجب كأنه ساحر، جلست والدتي إلى المعزف وجعلت تتأمل مقطوعات "الدراسة" التي تركها مفتوحة، وتحركت أناملها تعزفها، ولم تكد تقطع منها بضع نغمات، حتى كنت أنهب السلم هابطًا، وفتحت الباب، وخرجت إلى الشوارع ذات الصقيع القارص المتساقط، بغير معطف وبغير قبعة، عسى أن أظفر بلمحة أخرى منه، أو لعله يرق ويعود معي!

يالها من تجربة!

ولابد من تجربة تماثلها في حياة كل إنسان!

فإننا نرتقي في إنسانيتنا بمقدار ما يتاح لنا أن نحب البشر الجديرين بالحب، والإعزاز، والإكبار.

وبهذه العبادة للشخصية الفذة، بدأت مدرسة إنسانيتي في تلك المرحلة الباكرة من صباي. وبطبيعة الحال، لم أتمكن من إدراكه في بعض الطريق؛ ولكني في الغالب لم يكن تفكيري منصوفًا إلى إدراكه حقًا. كانت حركة اندفاعي نحوه نتيجة دافع قوي من داخلي، بصرف النظر عن نتيجة ذلك الاندفاع.

كان اندفاعي نحوه غاية في ذاته.. تعبيرًا وصلاة..

وكان التقائي به بعد ذلك بنحو ستة أعوام، عقب عودته من رحلته في الخارج، وقد وافقت تلك الفترة أعوام المراهقة عندي. ومما يعلمه الكافة أن تلك الفترة من العمر فترة لا تعترف بالقيود والروابط والحدود.

يا للمراهقة من فترة! إن عقودًا بعد عقود من السنين قد تمر بنا بعد انتهاء المراهقة، ولكن هذه العقود عاجزة مهما اجتمعت عن سد ذلك الفراغ الذي كانت تملؤه المراهقة! وإلى هذا القبو الضخم نغوص في باقي عمرنا كي نستخرج منه زادًا من الذكريات فرادى وزُرافات، نغوص إليه ملتمسين ذلك الزاد آن ليلاً وآن نهارًا، كما تغوص الطائرات التدريبية مهما ارتفعت في تحليقها لتحط دائمًا عند مخازن الوقود التي لا غنى لها عنه.

وبعبارة أخرى: إن هذه السنوات القلائل من عمرنا التي تسمى سنوات المراهقة، جانب من العمر يبز سائر جوانبه، فلا شك في أن

فاوست الذي عاش تلك السنوات الفذة مرتين؛ عاش في حقيقة الأمر حياة لا يمكن تخيل روعتها وعمق اختلاجاتها؛ حياة تلحق المحدود الفاني بالمطلق الباقي السرمد الذي لا يمكن قياسه إلا بما يدخل في نطاق التناقض الرياضي.

وبوصول سكريابين من الخارج، بدأت تجارب "النشوة" على الفور، وكم كنت أود لو غيرت ذلك العنوان الصارخ وجعلت موضعه عنوانًا أليق بذلك الأثر الفني...

وكانت تلك التجارب تجري في الصباح. وكان الطريق إلى مكانها يخترق الحقول والأبنية وهي غارقة في الوجوم الذائب، وجوم الجليد والضباب والندى المتجمد على أوراق الأشجار؛ حتى الخبز كانت تتجمد فتاته، وحتى الكفاس، كانت تتجمد حبيباته، ورنات الأصوات القليلة التي تطلقها طيور الغاب لا تتردد إلا مرة واحدة، ثم تجمد في حنجرتها، وفي ذبذبات الهواء المغلف بالضباب، والأجراس المعلقة في أعناق الدواب التي تجري بالزحّافات تُبدد الصمت بين حين وحين، كي تبتعد مسرعة.

والفرقة الموسيقية، إذا أغمضت عينيك، أو جهلت وجود عازفيها، نقلت إليك صورة من تلك الأصوات والأصداء، ترن مرة واحدة ثم تختفي ويطول الصمت، ثم تتابع رنات وطرقات حوافر على الجليد، إيذانًا بزحّافة تسرع، ثم ترتفع أصوات تهليل، فتدرك أن في الزحافة إنسانًا نشوان بذلك الوجوم الذائب الحالم.

وقاعة الموسيقى في ذلك الأوان أشبه بحلقة السيرك في ساعات

الصباح، حين يكون الاهتمام كله موجهًا إلى التنظيف، وتكون مقاعد المدرج ومقاصيره كلها خالية من النظارة. ورويدًا رويدًا – كأنما على مضض – امتلأت مقاعد الموسيقيين، وعلى مضض أيضًا بدأت الأنغام تتجاوب في بطء، كأنها تنبعث من العصا السحرية، وتتردد منعكسة على خشب الأرغن الكبير. وتتسارع الأنغام بعدئذ كأنها في سباق مروّع، تحسب معها أن المدينة يهجرها أهلها سراعًا أمام جيش عدو زاحف؛ أنها تتسابق في ارتياع ولهفة بحثًا عن التناسق، فإذا قاربته هدأت أنفاسها المكروبة.

وكانت السيمفونية المعزوفة يومئذ، تصور في الواقع بداية السُّكنى في عوالم الكون؛ تخيل فيها على منوال فاجنر كائنات أسطورية وحيوانات خرافية كالديناصور، وهي تقوم بعمارة هذا الكون للمرة الأولى في فجر الكينونة.

وما كان بوسعي أن أسمع تلك الموسيقى العجيبة من غير أن تطفر الدموع إلى عيني، ونقشت أنغامها في ذاكرتي قبل أن ينقشها الحفار والطابع في صفحة الورق للمرة الأولى.

وأي غرابة في هذا ؟.

أليس صاحب هذه الأنغام ومبدعها قد وضع يده على منذ ست سنوات، وضع المسيطر المهيمن المعبود في جوانح المراهق المرهف الحِس عبادة الخشوع والإجلال؟

إن سلطانه على وجداني في تلك السنوات الست لم تقل وطأته، بل ازدادت مع النضوج رسوخًا.

وما كانت تلك السنوات الست من دورة الفلك إلا سلسلة من الأطوار المتعاقبة التي يوجه فيها النمو توجيهًا حاسمًا سلطان إرادة أعلى، مستقرًا في الوجدان الغض للفتى الصغير.

ولهذا واجهت هذه السيمفونية وجداني النامي مواجهة ند؛ مواجهة خليقة صنو خليقتي؛ فكلانا – السيمفونية وأنا – يحمل طابع ذلك الخالق الفنان، وما كنت لأُخطئ صورتي الباطنة في تلك السيمفونية الفذة، وصورة زمني وبيئتي وأزمة مجتمعي، فرأيت في أنغامها – بشكل أقوى وأوضح – من حولي من صنوف البشر، ونهجهم ونهجي في العيش، ومشغلتي ومشغلتهم من اهتمامات الدنيا، وأشواق الجسد والروح.

وكنت أحب الموسيقى حبًا يفوق حبي لأي شيء في الدنيا مجتمعة، وكنت أحب سكريابين حبًا يفوق حبي لأي شخص في دنيا الموسيقى والنغم...

وترجع بداية مزاولتي المتعثرة للموسيقى إلى سن سابقة على معرفتي بسكبريابين ولقائي الأول معه؛ أي إلى ما قبل العاشرة، فلما حانت عودته من رحلته الطويلة في الخارج كنت قد غدوت تلميذًا لمؤلف موسيقى لم يزل إلى اليوم على قيد الحياة، متمتعًا بأطيب صحة، ولم يبق على تمام تعليمي الموسيقى سوى أن ألم بدقائق التوزيع الموسيقي.

كان كل شيء في ذهني ممكنًا، وكان كل فرض جائز الوقوع وكل قول له وجه من وجوه الاستطاعة والصواب، ولكن المستحيل الوحيد الذي كانت مخيلتي تعجز عن مجرد تصوّر وقوعه، هو إمكان قيام الحياة لحظة واحدة بغير موسيقى؛ فالحياة عندي كانت تقبل كل صورة ممكنة، في إطار

النغم وحده. الحياة هي الموسيقى، والحياة الموسيقية وحدها هي الأصل الذي يقبل بعد ذلك كل صورة، وكل شكل.. من مأساة، إلى ملهاة، إلى ملايين الظلال والدرجات التي تتفاوت وتتباين بين هذين الطرفين.

ولكني لم أكن حائزًا على مَلَكة إدراك "القرار المطلق" لأية نغمة، والمقصود بهذا مَلَكة معرفة قرار أية نغمة تقع على الأذن، وهذه الملَكة ليس لها ارتباط مباشر بالحاسة الموسيقية العامة، بيد أن افتقاري إليها وتمتع والدتي بهذه الملَكة تمتعًا كاملاً أثّر في نفسي تأثيرًا كبيرًا، ولم يدع لي لحظة سلام واحدة.

ولو أن الموسيقى كانت عندي حِرفة أصبو إلى احترافها، كما تدل على ذلك النظرة الظاهرية إلى نشاطي ودراستي؛ لكان افتقاري إلى هذه الملَكة خليقًا أن يهون عندي هوانًا تامًا، فأنا أعلم تمام العلم أن كثيرين من أعظم وأبرز المؤلفين الموسيقيين المعاصرين، محرومون من هذه الملَكة حرمانًا تامًا، والمعتقد أن فاجنر وتشايكوفسكي لم يتفق لهما السيطرة على تلك الموهبة كما ينبغي.

ولكن الموسيقى لم تكن عندي حرفة..

كانت الموسيقى لديّ ديانة لها كل القدسية، ولا يمكن أن أغفل شعيرة من شعائرها، أو أغتفر لنفسي التقصير في أهون نوافلها..

الموسيقى عندي عبادة لا أقنع فيها بما دون الوصول والفناء، وفي حبي لها اجتمعت كل مكنونات نفسي الشابة من العشق والهيام، وإنكار الذات، والرغبة في الاندماج المتفاني...

ولهذا السبب، كنت كلما أنبتت إرادتي أجنحة لموهبتي في أمسية من أمسيات الإلهام، وعزمت على تسجيلها في الصباح؛ طلع النهار فإذا بي أُضاءِل من طموحي، وأذكر نفسي بنقصي المزعوم..

ومع هذا كله، كنت قد أتممت تأليف بضعة أعمال جادة، قبل عودة معبودي، وعقدت العزم على وضعها بين يديه في أقرب فرصة، وشرعت أعد العدة لتلك المقابلة، وكان اللقاء بيننا من المفروض أن يكون طبيعيًا جدًا بالنسبة لتلك الصداقة الوطيدة بين أُسرتينا، ومع هذا كان اتخاذي لتلك العدة مصرفًا لمجهود نفسي كبير من قبلي.

والحقيقة أن هذه الخطوة العادية في ظاهرها، كانت تنطوي في نظري على نوع من التجديف أو الكفر.. أو الاجتراء على شيء مُقدس!

وفي الموعد المضروب، اتجهت إلى جلازوفسكي حيث كان يقيم سكريابين في ذلك الوقت، ولم أكن أحمل إليه في حقيقة الأمر مؤلفاتي الموسيقية، بل أحمل إليه في الأكثر حبًا وإجلالاً، متجاوزًا منذ زمن بعيد حدود القدرة على التعبير...

كنت أجتاز الطريق المحفوف بماء المطر، وأخترق صفوف السابلة، وتمر بي العربات، والأبقار، وأنا سابح في نشوتي باللقاء المهيب المرتقب، كأني أسعى إلى منسك للحج!

ويومئذ أتيح لي أن أدرك مدى التدريب العالي الذي ارتفعت إلى مستواه عضلات وجوهنا البشرية!

حالت حالتي العصبية المتوترة بيني وبين التنفس المنتظم الكافي،

فغمغمت شيئًا ما بلسان جاف، ثم غسلت إجاباتي المتلكئة في حلقي بجرعات من الشاي متوالية، حتى لا أغص، أو أشرق، أو أزيد الأمور سوءًا بأي نوع آخر من آيات الارتباك...

وبدأت دغدغة كدغدغة النمال تدب حثيثًا في الموضع الذي يعلو عظمتيّ الفك، ثم في جانبي جَبهتي، فجعلت أحرك حاجبيّ وأهز رأسي وأبتسم، وكلما لمست بيدي أرنبة أنفي الذي تبلغ عنده ذروتها تلك الدغدغة كأنها نسيج خفي تحكمه عناكب غير منظورة، تفصَّد العرق من جبيني، ووجدت يدي تعمل بالمنديل المكوّر فيها عملاً دائبًا لتجفيف العرق الذي يتجمع في حبات كبيرة، كلما أزلت طبقة منها، تلتها طبقة من سلالتها السريعة التوالد..!

ومن وراء رأسي، خلف الستائر الوردية اللون، كان الربيع الباكر ينشر شذاه ولمساته الخضراء اليانعة الغضة فوق المروج المغلفة ببقايا الصقيع وبخار الضباب.

ومن أمامي، كان ربَّا الدار يجتهدان بفيض أحاديثهما في شتى الموضوعات أن يحلا عقدة لساني ويذللا أمامي العقبات التي تعترض اطمئناني في مجلسي وانطلاقي على سجيتي في الحديث معهما، وبينهما أقداح الشاي المترعة، والسموار يرسل هسيسه وأسهم بخاره، والشمس من فوق الرؤوس– تحجبنا عنها السقوف– ترتفع في الأفق رويدًا...

وكان السيجار الذي يحترق على مهل فوق المنفضة، يبعث سحابة بنفسجية من الدخان الملتوي في حلقات حلزونية حتى إذا قابلت تلك

السحابة الضوء ازداد تلوّيها وتباعدها، كأنها تريد أن تتجنب الشمس، حتى تبدو لعيني مثل ظهر السلحفاة المرقشة.

ولست أدري حتى اليوم لماذا زاد منظر هذا الدخان البنفسجي الذي يروغ من الضوء في توتر حالتي العصبية، ولست أدري ماذا عساي كنت فاعلاً لو لم أعبر الصالون لأجد نفسي أمام البيانو، بدعوة –ولاشك– من مضيفي.

ولم تزايلني البقية الباقية من التوتر العصبي، وأنا أعزف المقطوعة الأولى، حتى إذا شرعت في عزف المقطوعة الثانية كنت قد استعدت رباطة جأشي أو كدت؛ أما وأنا أعزف المقطوعة الثالثة، فقد أسلمت نفسي تمامًا للإحساس بما هو جديد وغير متوقع.. ذلك الإحساس الذي هو الغاية الحقيقية من كل أداء فني.

وعَرَضًا، وقع نظري على وجه مستمعي.

وكان يتابع تطور المعزوفات، فرفع في بداية الأمر رأسه منصتًا، ثم رفع حاجبيه مصيخًا، ثم تفجرت الحُمرة في وجهه جميعًا لشدة انفعاله بما يسمع، ونهض واقفًا منتصبًا بمجموع قامته، وجعل يصاحب تنوعات النغم بتنوعات مماثلة لها من ابتسامته، مندمجًا معي ومتجهًا إليّ، في إيقاع انفعالي، كان يحب ما يسمع. أحبه كله. وبادرت إلى إنهاء العزف، وعلى الفور شرع يؤكد لي أنه مما ينبو عن الذوق؛ أن يحدثني عن موهبتي الموسيقية، وبين يديه شيء أكبر من هذا المستوى بما لا يقاس، وأردف مقررًا أنني أملك التعبير عن نفسي بالموسيقى وإن لي فيها لغتي الخاصة وأسلوبي الخاص.

وأشار إلى بضعة جمل مما سمع، ثم جلس إلى البيانو ليعيد بنفسه إحدى

تلك الجمل؛ لأنها استرعت انتباهه بصفة خاصة، وكانت تلك الجملة بالذات معقدة، فلم أتوقع منه أن يعيدها بحذافيرها، ولم يكن أي تعديل فيها ليدهشني، ولكن الذي حدث كان شيئًا آخر أدْعى من الدهشة والمفاجأة؛ لقد عزف الجملة الموسيقية على أساس خاطئ من قرار النغمة، بمفتاح مختلف تمامًا، وإذا بناحية النقص التي ظلت تعذبني كل تلك السنوات تنبثق من تحت أنامله لتنم عن انتسابها إليه!

وعلى الفور بدأ تفكيري على الأساس الذي تعودْتُّه من إيثار بلاغة الواقع على بلبلة التخمين، وجعلت أناقش فرضين؛ فهو أما أن يعترف بهذا النقص ولا يتردد في الإقرار به قائلاً:

– على رسلك أيها الأخ الصغير بوريا! فأنا نفسي ليست عندي هذه الملَكة لالتقاط القرار الأقصى للنغمة!

وفي هذه الحالة يكون كل شيء على ما يرام، ويكون التصاقي بالموسيقى ليس تطفلاً؛ بل لأن الموسيقى هي قدري الذي كتبته على فطرتي الحقيقية.

أما إن كان الجواب على سؤالي هو تحويل الحديث إلى فاجنر وتشايكو فسكي وعازفي البيانو المحترفين والمقارنة بين هذا الفريق وذاك ثم القول:

– وما قيمة القرار الأقصى للنغمة بعد كل ما قلته لك؟

وما القول في فاجنر وتشايكوفسكي، وهما من هما ولم يسلس لهما قياد ذلك القرار؟ وما قولك في مئات من محترفي العزف أسلس، لهم ذلك القرار وليس لهم في الموسيقى وزن يقام؟

عندئذ أدرك أنه يجهل افتقاره إلى تلك الموهبة السمعية، أو أنه على الأقل يتجاهل ذلك.

وكنا نتمشى في الحجرة طولاً وعرضًا. وكان يضع يده أحيانًا على عاتقي ليتناول ذراعي في قبضة يده، ويحدثني عن ضرر الارتباط بوقت معين أو مكان معين للتأليف الموسيقى، وضرب لي أمثلة للبساطة في التأليف، بساطة تطمح إليها دائمًا بصائر المؤلفين، فاختار تلك الأمثلة من سوناتاته شخصيًا، وهي مشهورة جدًا بتعقيدها!، وضرب أمثلة للترتيب والتداخل العالي بمقطوعات من النوع العادي جدًا.

ولم تزعجني هذه المفارقات في مقارناته، ووافقته على أن انعدام الصورة أشد تعقيدًا من توفرها في العمل الفني، وشيئًا فشيئًا تطرق بنا الحديث إلى نصائح محددة وجهها لي، فسألني عن دراستي التعليمية، ولما علم أنني اخترت كلية القانون لبساطة دراساتها، نصحني أن أستبدل بها على الفور كلية الفلسفة أو قسم الدراسات التاريخية اللغوية؛ وقد وضعت نصيحته موضع التنفيذ في اليوم التالي مباشرة.

وفي حين كان سكريابين ماضيًا في حديثه ونصحه، كان ذهني يدور حول الاكتشاف المذهل الذي وقعت عليه؛ إنه لا يدري افتقاره إلى حاسة القرار الأقصى للنغمة، ذلك الافتقار الذي أقض مضجعي سنوات، ولكن هل استطاع هذا الكشف المؤسف أن يعزل عن العرش صنمي المعبود؟

كلا! مطلقًا؛ بل رفعه ذلك الاكتشاف عن مكانه السابق العلي إلى مكان أعلى. لماذا ضنّ علي بجواب حاسم على سؤال يقرر به هوان تلك الحاسة الآلية؟

هذا هو السر الذي لم أستطع الوصول إلى كنهه، وربما طابت نفسه يومًا ما كي يعترف لي ذلك الاعتراف المضنون به الآن، ولكن سيكون ذلك بعد فوات الأوان.

وكيف تراه استطاع أن يتغلب على القلق والشك اللذين أثارهما إحساسه بذلك الافتقار الحسي حينما كان في مطلع شبابه مثلي؟

ذلك أيضًا بعض سره الذي طواه عني، وكان ذلك مما رفعه في نظري فوق رفعه، ومهما يكن من شيء فإن أطياف الغسق بدأت تحوم بأجنحتها في جو الحجرة، والمصابيح في الخارج قد أضيئت، فآن لي أن أعرف متى ينبغي الاستئذان في الانصراف.

ولم أدر وأنا أودعه منصرفًا كيف أوليه شكري، فإن شيئًا ما قد أخذ يتدفق منبثقًا من أعماقي، هذا الشيء كان ينزع إلى التحرر ويمزق نفسه ليستخلص استقلاله من قراراتي، كان هذا الشيء يئن باكيًا في شجى النشوة التي يخالط عذوبتها القصوى ألم من شدة الوجد؛ ألمٌ هائم ملتاع أرِبت سعادته على الاحتمال.

وتكفلت أول دفعة نديَّة من هواء الطريق الطلق بتذكيري بوجود البيوت والأقنية والمسافات..

وترامت إلى سمعي تلك الأصداء المتصلة من ضجة موسكو التي ترتفع كلحن الليل نحو سماء الغسق.

وأذكرني ذلك أيضًا والدي، وكيف أنهما الآن في انتظار عودتي وعلى لسانيهما عدة من أسئلة أعداها لإلقائها على حول موضوع تلك المقابلة العتيدة.

وعلمت حينئذ أنني على أية صورة أفضيت إليهما بمضمون تلك المقابلة وتفاصيل ما جرى فيها أو إجماله، فلن تحدثهما تلك الصورة المرويَّة إلا عن أعظم السعادة وأعذبها.

وعندئذ، وعندئذ فقط، استولى عليّ منطق الواقع، ذلك الواقع الذي كانت أهم معالمه الاستجواب المنتظر؛ فشرعت أواجه وقائع يومي ذاك مواجهة واعية، فإذا بتلك الوقائع لا تمت إليّ، أو إلى عالمي الباطن، بل إلى دنيا الناس، وعالمهم الخارجي الظاهر، فما سأحمله إلى أبوي من أنباء ذلك اللقاء سيعني لديهم استفتاح مستقبل باهر لي في الموسيقى، ولم يكن هذا الإحساس يساورني، فما له أهمية إلا عند سواي.

في باطني كان القلق يزداد، وكان الحزن الذي تكمن بذرته في أعماق سعادتي بذلك اللقاء ينمو، ولكني علمت في قرارة نفسي أن هذا الحزن الهائم والوجد المستولي على فؤادي؛ لن يتسنى لي أن أصبه في إذن إنسان مهما كان قريبًا من نفسي؛ أنه وجد غير مفهوم من أحد، لأنه من غير عالم الواقع ومنطقه المحدد..

هذا الوجد الحزين ينبغي أن أتركه في رحاب الطريق الذي تصفر فيه الريح بين جنبات موسكو التي لم أحس في أي وقت مضى كما أحسست الآن أنها لي..!

وتحريت الشوارع الجانبية الصغيرة التي لا تزدحم بالأضواء والأصوات والسابلة، وعبرت الطريق أكثر مما تقتضي ضرورة السير، وأنا هائم على وجهي مع وجدي الحزين وسعادتي الممزوجة بالشجن.

ومن غير أن أدري، وجدت الدنيا التي كانت تبدو لي من قبل جادة لا صدى لها في نفسي، وقد ذابت في إحساسي، وبدأت تختلج بالحياة في باطني..

وبدون أن أدري أيضًا، أخذت سرعة سيري تزداد مع كل خلجة جديدة بالإحساس بما حولي من دنيا كانت قبل جامدة غريبة عني، ولم يخطر ببالي أن تلك الليلة الفريدة في إحساسي بالمدينة وبالدنيا كانت بداية طلاقي البائن للموسيقى!

ما أعظم امتياز الإغريق على جميع الأمم، في جميع العصور!

لقد عرف هؤلاء العمالقة في دنيا الفكر والفن، كيف يفهمون الطفولة، وكيف يعالجونها بوصفها شيئًا مختومًا مجهول المكنونات والملكات؛ كأنها بذرة كائن حي، لها استقلالها، ولها صفتها الخاصة، ولها حق المبادأة والقدرة عليها، ولها تكاملها الداخلي الخاص.

ويكفي لإدراك مدى تفوق الإغريق في هذا المجال، أن تلقي نظرة على أسطورة غاينميد وكثيرين غيره ممن على شاكلته، وعلى أساس هذا الإدراك لخطورة شأن الطفولة وانطوائها على أخطر المجاهيل والممكنات، قام فهم الإغريق وتأويلهم لإنصاف الآلهة والأبطال وأفذاذ الرجال.

ولهذا آمن الإغريق بوجوب جمع ألوان من المغامرة والمخاطر والمآسي في حفنة صغيرة يستطيع الفتى في سن مبكرة أن يقلبها بين يديه، وينظر فيها، ويحيط بها في لمحة خاطفة، في صورة تلك الأساطير.

ومنذ نعومة الأظفار، حرصوا على أن يرسوا أساس أوليّات الأفكار الكونية، كالإحساس بالقدرية المسيطرة على الإنسان والمتمثلة في فطرته على

نحو ما ييسره لأمر ما، كما تتمثل في جبروت القضاء المحتوم. وما أشد حاجة كل طفل لإدراك هذا منذ البداية ليكون في مستقبله على بينة من دنياه.

بل إن الموت نفسه ينبغي أن يجربه الصغير على نحو من الإنحاء، ولو في شعيرة من شعائر الدين أو طقوس الأسطورة؛ تمثل له ذلك الطارق الذي لا يتخلف، ويختار وحده الموعد الذي يدق فيه أبواب البشر.

وهذا الفهم هو الذي جعل أولئك القدامى ذوي فن يتناول العموميات، **والكليات، حافل بالمفاجئات، مثير بجوه السحري الأسطوري** كأنه أقصوصة من أقاصيص الجن للأطفال، ومع هذا لم يعرف، أولئك القدامى الرومانسية؛ كان إدراكهم واقعيًا في الصميم، وخياليًا في الصورة والأسلوب.

وضل مَن بعدهم عن هذا النهج الفريد.

أما هم فراحوا بدعة في الأمم في شتى العصور؛ لأن الخارج كان عند فتيتهم هو عين المألوف المطروق، عليه تغذّوا ونموا، فما كان ليدهشهم في رجولتهم طارئ من الأحداث..

وقديمًا كان الرجل منهم يدخل عالم الواقع الهائل، بخطوات هائلة جبارة، لا يروعه الرائع، ولا تدهشه الأعاجيب؛ لأن خروجه من الحياة كإحساسه بما حوله من أمورها وممارسته لها، أشياء متوقعة عنده، لا يجد لها غرابة ولا استهوالاً. فمرد كل غريب إلى المرتقب من وجدانه، وموقع كل جديد طريف هو موقع الألفة التي لا تشعر مهما جلّ الموقف؛ إلا بالمناصاة في غير بَهرة ولا إجفال.

وبعد ذلك بمدة قليلة، كنت أستعد ذات مساء للتوجه إلى اجتماع تعقده

جمعية "السردارد"؛ وهي مجموعة تضم نحو عشرة من الشعراء والموسيقيين والفنانين. وتذكرت فجأة أنني كنت قد وعدت جوليان أينزيموف الذي كان من عادته أن يتلو على الجمعية ترجمات ممتازة من أشعار ديميل، الشاعر الألماني المعاصر، أنني سأقدم للجمعية شاعرًا ألمانيًا آخر أعلى مكانته فوق سائر معاصريه، ولا أعدل به شاعرًا آخر من شعراء الألمان في جيلنا.

وهكذا تناولت ديوانًا يضم مجموعة من قصائد ريلكه، وخرجت أشق طريقي في المطر والجليد متجهًا إلى تلك الحجرة العلوية المشيّدة من الخشب تحت سقف دار عتيقة تظللها أشجار الحور، كما دأبت أن أذهب بين الحين والحين كي أعود من هناك في برد الشتاء ووحشته، دافئ القلب مأنوس النفس بصداقة جديدة، وبإحساس بهيج بأن بابًا آخر قد انفتحت مغاليقه أمامي في تلك المدينة الكبيرة المكتظة بالغربة والغرباء.

ولعله من المناسب في هذا المقام، أن أذكر كيف حصلت على هذه المجموعة من القصائد الألمانية.

كان ذلك قبل ست سنوات من تلك الأمسية. في أصيل يوم من أيام ديسمبر الساكنة التي تحمي صمتها وعزلتها ندف الجليد، وهي تتساقط، فتلف الجو في طيات الغموض والرهبة، وكنت جاثيًا على ركبتي أساعد والدتي في تنظيم رفوف مكتبة أبي. وكانت أمي تنفض التراب بمهفة من الريش، ثم تنسق الكتب تنسيقًا أنيقًا؛ وإذا بكتاب ذي غلاف رمادي باهت يسقط من بين إحدى المجموعات، وبطريق الصدفة المحض لم أُعِد ذلك الكتاب إلى موضعه، بل رفعته عن الأرض وأخذته بعد ذلك إلى حجرتي.

ومر وقت طويل تعودت في خلاله أن أحب ذلك الكتاب شيئًا فشيئًا، ثم انضم إليه كتاب آخر يحمل إهداء إلى والدي أيضًا، بنفس الخط الذي يحمله إهداء الكتاب الأول.

ومرت فترة أخرى قبل أن اكتشف بطريق الصدفة أن مؤلف الكتابين راينر ماريا ريلكه، هو ذلك الألماني نفسه الذي التقينا به في رحلتنا بالقطار منذ زمن طويل في يوم من أيام الصيف، وكان لذلك الاكتشاف صدى عميق في نفسي لا أدري لماذا أثارني بهذه الصورة.

ولعل قارئي ينتظر مني أن أقول ما هي الموسيقى أو ما هو الفن على وجه العموم، فإن لذلك صلة بالشعر بصفة خاصة، وليس في نيتي أن أجيب عن هذا السؤال جوابًا نظريًا؛ ولكن الشيء الكثير مما سأرويه هنا عن أطوار حياتي الفكرية قد يحمل في طياته الجواب الذي أقدر عليه، والذي يلقي ضوءًا على شعري.

كانت الشمس تبرز صاعدة من وراء مكتب البريد، وتطلي بأشعتها الذهبية جانب البناء الذي نقيم فيه، وتفرش ابتداءً من وقت الغذاء قاعة المائدة والمطبخ، وكان المسكن جزءًا من بناء حكومي كانت حجراته فيما مضى قاعات للدرس، وكنت حينئذ أدرس في الجامعة، وأقرأ هيجل وكانت. وفي هذه الفترة كان كل اجتماع لي مع أصدقائي الذين أسلفت ذكرهم يتكشف عن هوة فكرية جديدة فيما بيننا، وفي كل اجتماع كان واحد منهم لا يخطئ أن يطلع علينا برأي جديد يناقشه الصحاب ويختلفون حوله.

ولربما خطرت الفكرة الجديدة لأحدهم، فراح يمر بحجرات بقية

الصحاب على تفرق مساكنهم، وقد يوقظ نائمًا منهم من رقاده قبيل الفجر ليحدثه عن اكتشافه الفكري الطارئ، وكان الذي يخجل هو النائم لا الذي أيقظه؛ لأننا في تلك المدة من العمر كدنا نحسب النوم في أي وقت من الأوقات نقيصة أو ضعفًا لا يليق بحياة الفكر وطلب الحكمة.

وكان من عادتنا أن نقدم على شيء يدهش له الداجنون من الناس، وهم من كنا نعتبرهم من التفاهة بحيث لا يعتد لهم وجود، فنخرج إلى الأحراش للنزهة فيما وراء مفترق الخط الحديدي عند يرسولاف، وكانت لي صداقة عندئذ بفتاة من أسرة ثرية، وكان جليًا للعيان أني متيّم بها، وكانت تشترك معنا في تلك النزهات الخلوية الليلية.

وفي مدة الدراسة كنت أعطي دروسًا خصوصية متفرقة رخيصة الأجر حتى لا أتقاضى نقودًا من أبي، وفي الصيف عندما يرحل أبواي للاصطياف، كنت أبقى وحدي وأعيش على حسابي الخاص، وكان فرحي بالاستقلال المادي باعثًا لي على تحمل التقشف الشديد في طعامي، حتى لقد كان الجوع قاسمًا مشتركًا بين الساعات التي تصل النهار بالليل والليل بالنهار في مسكن أسرتي الخاوي.

ولم أكن قد قطعت بعد ما بيني وبين الموسيقى بصفة نهائية وكان الاهتمام بالأدب قد بدأ يزاحم الموسيقى ويشاركها طاقة اهتمامي، وبدأت مع نفر من أصحابي أعقد صلات مع جمعية أدبية معروفة، ومن أصحاب آخرين علمت بأهمية جامعة مربورج كمركز إشعاع للثقافة الفلسفية والأدبية، وانتقل اهتمامي من كانت وهيجل إلى كوهين وناتورب وأفلاطون،

وفي هـذه المـدة أيضًـا، بـدأت أتطلـع إلى اسـتخدام الكلمـة بـدلاً مـن اسـتخدام الصوت كما يتطلع المهيض السامد إلى تعلم ألعاب الأكروبات!

ولكن نشأتي الموسيقية وهيامي بالنغم المتسق ألقحت حب الكلمة، فكان الشعر، والكلمة الموزونة ذات الإيقاع، هو النتاج الذي خرج من هذا الزواج في نفسي بين الموسيقى واللغة، وفي هذه الفترة أيضًا، بدأت تنتابني موجات من الكآبة أتصبب فيها عرقًا، وتهتز المرئيات أمام ناظري، وأكاد أرى الموجودات العينية على صورة غير صورتها الحقيقية، مع إدراكي في الوقت نفسه لحقيقة ذلك الازدواج، فكنت أضيق بما حولي من واقع ملموس لا حيلة لي في معاناته؛ وفي ظلال هذا الضيق، كنت ألتقي بالوجوه الباسمة لتلاميذي، وهم يفتحون كتبهم أمامي وينتظرون مني أن أقبل على التدريس لهم ستين دقيقة كاملة، كأنه لا يشغلني في الحياة إلا إشباع النهم الذي أقرؤه في عيونهم إلى المعرفة السطحية في مستوى الكتب المدرسية.

وفي ظلال هذا الضيق أيضًا، كنت أختلف إلى الجامعة وأرى الأساتذة يحدقون من خلف عويناتهم إلى رؤوس الطلاب المتراصين في المدرج، وقد خرجت رؤوسهم من معاطفهم بصورة متماثلة فأكاد أرفع عيني إلى السقف لأرى اليد التي تحرك تلك الرؤوس بخيوط خفية، كما يحدث في مسرح من مسارح العرائس أيام الكرنفال!

وعرضت نفسي على طبيب، فخامره الظن أنني مصاب بالملاريا ولكن نوبات الضيق والعرق لم يشفني منها عقار الكينين الذي وصفه لي، كان عرقي احتجاجًا من بنيتي على قبح الواقع الذي أعيش فيه، وعلى تفاهته

وسطحيته، فكل إنسان في هذا الواقع يعيش وكأنه يمثل دورًا، أو يقف نموذجًا أمام آلة التصوير... ما من أحد يعيش حياته بدافع من أنيته الباطنة، هذه الابتسامات على الوجوه ليس فيها من الوضاءة والإشراق إلا ذلك اللمعان الخارجي الذي يكسبه الطلاء الجيد للأحذية النظيفة!

كانت نفسي قطبًا مغناطيسيًا مضادًا لقطب ذلك الواقع.. استريح إذا خاطبت من وراء الزمان والمكان عبقرية من طراز بلزاك، فأطمئن إليها اطمئنان الحميم إلى الحميم، والمواطن إلى المواطن، ولكن ما إن أخرج عن هذا الوطن الروحي لأُجابه وطن الواقع، حتى يهتز، القطب المغناطيسي إهتزاز التنافر، ويتفصد العرق من بنيتي، وتستولي على الكآبة، وكأنني أهيم في بحران كبحران الحمى أو سنة النوم التي لا تغفل عن الواقع المحسوس تمام الغفلة.

ولهذا السبب لم تكن تنتابني الحمى في محاضرات الأستاذ سافين؛ لأن هذا الأستاذ لم يكن نسخة أمينة لنموذج المحاضر المتكلف؛ بل كان يتدفق في محاضراته ومطالعاته تدفقًا طبيعيًا أشعر معه أنه ينسى نفسه، أو بعبارة أصبح يعطي نفسه كلها ويعيش موضوعه الذي يحاضر فيه، ولم يكن يشعر بالزمن، ولهذا لم أره مرة واحدة ينظر كما يفعل غيره من الأساتذة إلى ساعة جيبه الكبيرة مرارًا وتكرارًا، ثم يحملق في الطلبة بسأم صابر! وهكذا كنا ننسى في محاضرته ضجة الترام في الشارع وتساقط الجليد لنعيش معه الأدب الفرنسي في العصر الوسيط أو عهد روبسبير؛ أما غيره من الأساتذة، فكانت دروسهم افتعالات سطحية ميتة، لم تكن فيهم حياة، فلم يستطيعوا أن يمنحوني بدروسهم الإحساس بالحياة، وأنا في تلك الفترة على الخصوص تختنق أنفاسي من كل ما ليس حيًا.. وما أقل مَن كانوا يتمتعون بالحياة الصميمة فيمن حولي من الإحياء.

وفي الساعات القليلة التي كنت أبرأ فيها من نوبات الحمى العصبية، واتمتع بالطمأنينة، وينعقد فيها السلام بيني وبين نفسي، كنت أخرج إلى ظاهر المدينة، إلى جناح من الأجنحة الخلفية في مبنى دير زلاتوستنسكي، ففي هذا الجناح توجد مخازن جميع تجار الأزهار في المنطقة، وإلى هذه المخازن تصل رسالات الأزهار الواردة من نيس والريفييرا الفرنسية، وهناك يستطيع من يشاء أن يشتري أندر تلك الجواهر العطرية بثمن زهيد جدًا، وكثيرًا ما كنت أهجر قاعات الدرس في الجامعة ولا سيما في بواكير الربيع؛ كي أقضي الأصيل هناك وأتشمّم رائحة أيام أكثر دفئًا وأسطع شمسًا وأطول نهارًا، تحملها تلك الأزهار في جذورها وأوراقها من مواطنها البعيدة، مبشرة بربيع لم يحل أوانه بعد في الأرض المغطاة ببقايا الجليد.

كنت أنزل إلى القبو مع التاجر وأبنائه، وأشهد في خشوع فض الأختام عن تلك السلال، وتحتبس أنفاسي في صدري لهفة على ما سيتكشف عنه غطاء السلة الذي يحمل طوابع البريد الإيطالية والفرنسية، وفي دوار خفيف كالذي شعر به علي بابا عندما فتح باب الكنز المسحور، تكاد تقفز عيناي؛ وإذا برائحة تسبق إلى الأنف ناعمة مترفة كالأطياف التي تلم بنا من عالم آخر، كل ما فيه نوراني شفاف، ثم تتكشف أمام العين سحابة بيضاء ناصعة، وأتنهد، ويختلج فؤادي وأنا أقول في همس بين النجوى وخشوع العبادة:

– نرجس..

وفي يوم آخر.. تتكشف السلال عن زرقة شفافة مضيئة كزرقة سماء

الريفييرا.. وتتهادى إلى الأنف رائحة أقوى وأشد إلحاحًا من رائحة النرجس الأبيض.. أنها أكداس من البنفسج.

وفي تلك الفترة من حياتي، كنت أنظر إلى جهودي في قرض الشعر؛ نظرتي إلى جانب ضعف يؤسف له، ولم أتوقع أن تؤتي هذه الجهود ثمرة طيبة في يوم من الأيام. وقد ظل هذا رأيي في شعري أمدًا طويلاً بعد ذلك الأوان.

ولكن رجلاً يُدعى "س. ب. دوريلين"، كان يثني على شعري ويمنحه تأييده وتقديره حتى ذلك الحين، وكان مرد هذا السلوك من جانبه أنه يصدر في جميع آرائه عن حساسية لا يشق لها غبار، ولم أعرف لها نظيرًا عند أحد.

وكنت حريصًا أشد الحرص عندئذ – لهذا الرأي الذي كنت أرتئيه في أشعاري – على أن أكتم أشد الكتمان ثمار هذا العرض السقيم من أعراض مراهقتي – أعني الميل إلى نظم شعر أراه ركيكًا هزيلاً – عن جميع أصدقائي، الذين كانوا قد أجمعوا على حسن تقدير مواهبي الموسيقية، ويرون أني صرت فيها راسخ القدم.

وفي الوقت نفسه أقبلت على دراسة الفلسفة بكل حماسة وبمجموع فؤادي، ملتمسًا في جوارها البداية الواعدة لاستقرار طيب في مستقبلي، يحل مشكلاتي التي أحس وطأتها المقلقة. والحق أن دائرة الموضوعات التي أقبلت جماعتنا الشابة على علاجها والخوض فيها وقراءة أسانيدها، كانت بعيدة عن المثل الأعلى؛ بُعد مناهج التدريس التي يستخدمها الأساتذة عن المثل الأعلى في المناهج والوسائل، فما كانت تلك الموضوعات إلا خليطًا سقيمًا غريبًا من ميتافيزيقا سطحية وثقافة كالحة الوجه!

ولا شك في أن الجمع بين الميتافيزيقا والثقافة العلمية العامة في منهج واحد بقصد التوفيق بينهما، قضى على البقية الباقية من المعنى الذي كان يمكن أن يستفاد من كل منهما لو أنهما دُرسا على حدة في منهجين منفصلين تمامًا.

واستحال تاريخ الفلسفة إلى دراسة مذهبية جامدة، في إلمام سطحي نواحي الجمود في كل مذهب، بحيث يفقد حكمته ويبدو عبثًا بغيضًا وقيدًا للعقل، أما علم النفس، فبدا لنا في تلك الدروس حفنة من القشور التافهة مسجلة في أسلوب متقعر أجوف!

واستعصى على مساعدي الأساتذة الشبان، من قبيل "شبت" و "ساسو فوف" و"كوبتزكي" أن يغيروا من هذه الأوضاع العتيقة الفاسدة.. ولكن الإنصاف يدعوني إلى الاعتراف بأن الأساتذة الكبار لم يكونوا مسؤولين عن هذه الأوضاع، ولا يقع عليهم وزرها؛ فقد كانوا مقيدين بضرورة المحاضرة بطريقة شعبية تصلح للمستمع العام، ولا يقتصر هدفها على الدارس المتخصص، وكانت غالبية المترددين على الجامعة من أولئك العامة أشباه الأميين.

وقامت في ذلك الوقت حركة فكرية ناشطة، تهدف إلى ما تصفه "أولئك الأميين الذين يفسدون الجامعة ولا يرجى أن ينتفعوا بشيء من جراء هذا الإسفاف في مستوى التعليم الجامعي". واجتهد أولئك الطلاب الذين يأنسون في أنفسهم الكفاية أو حسن الاستعداد أن يدرسوا بأنفسهم، وأن يشقوا طريقهم في التحصيل الجيد بغير معين، وجل اعتمادهم على مكتبة الجامعة الزاخرة بالمؤلفات والمراجع النفيسة.

وانقسم أولئك الطلاب الطموحون إلى ثلاثة اتجاهات أو أحزاب فكرية.. الغالبية منهم يؤثرون الفيلسوف الفرنسي "بيرجسون" بالإعجاب ولا يعدلون به فيلسوفًا آخر في زمنه، أما أشياع "هوسيرل"، فقد وجدوا في الأستاذ المساعد "شبيت" نصيرًا ووليًا، وأما أتباع مدرسة ماربورغ الفلسفية فلم يجدوا لهم هاديًا ولا دليلاً، فتفرقوا أشتاتًا من الرأي على غير هدى.

وكان ألمع هذه المجموعة كلها شاب يدعى "سامارين"، ينحدر مباشرة من سلالة روسية من أعرق السلالات وأنقاها، ولأسرته نسب ومصاهرة مع أكبر العائلات ذات النفوذ.. ولذا كان هذا الفتى لا يلم بالدروس أو المناقشات إلا مرة أو مرتين في كل فصل دراسي.. ومظهره في هذه المناسبات النادرة هو مظهر الفتى الوارث الذي يتأهب في أية لحظة للانصراف، لتلبية دعوة من دعوات العشاء الساهرة في قصر، أو في منتدى من منتديات العلية.

ولا يكون حضوره في تلك المناسبات المعدودة في بداية الدرس؛ كلا! بل في منتصفه، شأن مَن يختار بملء حريته أوقات تحركه ودخوله وخروجه. ويقطع المحاضر إلقاءه انتظارًا لسكون الضجة الصامتة التي أحدثها دخول هذا الأنيق، كأنه طيف من عالم آخر. ويظل طويلاً في انتظار انتهاء الشاب من اختيار مكان جلوسه، وهو اختيار يبدو في نظره مهمًا جدًا، ولا يصل إليه إلا بعد روية وعلى مهل، وغالبًا ما يقلب نظره ببطء في المقاعد، ثم لا يعجبه منها شيء فيصعد إلى قمة المدرج. وعند أبعد صف منه يختار مجلسه، وخطواته تحدث صوتًا على أخشاب الأرض العتيقة فتصر صريرًا واضحًا..

وأخيرًا يستأنف المحاضر الإلقاء في امتعاض، ولا يتركه "سامارين" في راحة، بل يقاطعه محتجًا بنص من هيجل أو كوهن، وكأنه يقذف بكرة وسط القاعة. وكان صوته عاليًا، ومخارج حروفه غير واضحة، ولكنه لا يعبأ بالاستنكار أو الدهشة، ويظل مثابرًا على الكلام إلى أن يفرغ كل ما في جعبته، وقد وصلت عصبيته إلى مداها، واحتقن وجهه، ولم نفهم منه شيئًا!

وتوارى هذا الشاب عن نظري في السنوات التالية، إلى أن عثرت به في شخصية "تخيليودوف" في رواية من روايات تولستوي!

لم يكن لذلك المشرب الصيفي القائم في شارع تفيرسكي اسم خاص به، ومع هذا كان الجميع يطلقون عليه "المقهى الإغريقي".

كان مشربًا صيفيًا، بيد أنه لم يكن يقفل أبوابه في فصل الشتاء.. وهو أمر عجب له جميع الناس، ولم يعرفوا له تفسيرًا.

وذات يوم، وعلى غير اتفاق سابق بيننا، اجتمع في ذلك المكان المكشوف، المقفر "لوكس"، و"سامارين" وأنا؛ فكنا هناك وحدنا، لا جالس سوانا في ذلك المساء فحسب، بل وفي جميع الأمسيات التالية، طوال فصل الشتاء، واتجه الجو إلى الدفء، عندما انكسرت حدة الشتاء، وأخذت بواكير الربيع تطل على الدنيا..

وما أن أهل علينا سامارين، وجلس معنا؛ حتى بدأ يتفلسف، وقد قبضت يمناه على عود جاف من أعواد البسكويت المملح، يلوح به في حركات إيقاعية، بين فقرة من فقرات براهينه وفقرة أخرى، وكأنه قائد جوقة موسيقية أو معلم موسيقي يلوح لتلاميذ الإنشاد بشوكة رنانة!

وما أن أفضيت إليه بموضوع الرسالة التي اهتم بإعدادها للتخرج في الجامعة، حتى راح يقفز من ليبنتز ولانهائياته الرياضية إلى هيجل وجدلياته وثنائياته، وخيل إلى أن ذلك الجوسق الصيفي قد رانت عليه سحابة من لانهائية هيجل، وهي تتناوح بانتظام بين الفرض ونقيضه!.

وفجأة انتقل "سامارين" إلى الكلام عن مدرسة ماربورغ الفلسفية، ولكن كلامه انصب على المدينة لا على الفلسفة! وكانت هذه هي أول مرة أسمع فيها كلامًا في وصف تلك المدينة العريقة وجوها الخاص، وعرفت فيما بعد أنه من المحال الكلام عن روح تلك المدينة، وقِدمها، وجوها الشعري، إلا على هذا المنوال الفريد؛ أما في ذلك الحين، فكان حديث "سامارين" عنها شيئًا جديدًا بالنسبة لي تمامًا، وأنا جالس في إنصات مبهور، في شرفة ذلك الجوسق الصيفي، وقعقعة صوت "سامارين" المتواترة كأنها دورات مروحة كهربائية تحتاج إلى تشحيم!

وفجأة أيضًا تذكر جليسنا أنه لم يأت إلى هنا كي يحتسي القهوة التركية التي اشتهر بها المشرب، وإنما هو قد جاء ليقضي دقيقة واحدة، وليتحدث في التليفون.. ولما وجد التليفون معطلاً، انصرف في حركة مفاجئة مثلما دخل، فأيقظ من تهويمه صاحب المقهى الذي كان منزويًا في الركن، وقد سقطت على وجهه الصحيفة التي كان يطالع فيها عندما استسلم للكرى.. واختفى سامارين عن أنظارنا تحت الثلج المتساقط، فنهضنا نحن أيضًا للانصراف؛ لأن الجو كان قد تغير، وزادت شدة البرد، والثلج الصلد المثمن الشكل ينهمر بغزارة، والريح تهب لاذعة، وفيها الكثير من حدة أنواء البحر.

وفي طريقنا عائدين إلى مساكننا، أثار "لوكس" أكثر من مرة موضوعه المفضل، وهو أدب الكاتب الفرنسي "ستاندال"، أما أنا فالتزمت جانب الصمت طول الطريق، وكان هذا أنسب ما أفعله وسط زمجرة الريح..

ولم أستطع أن أنسى حرفًا مما سمعته لتوي من سامارين. واستولت على الحسرة لأنني – في اعتقادي ليلتئذ– لن يتاح لي أن أرى تلك المدينة العتيقة الساحرة ماربورغ، إلا بقدر ما أطمع في رؤية أذني!

وكان هذا في فبراير...

وفي صباح يوم من أيام شهر أبريل، فاجأتني والدتي بأنها قد أدخرت من أرباح عملها ومن مصروفات البيت مبلغ مائتي روبل، وإنها قررت أن تمنحني هذا المبلغ، ونصحتني أن أنفقه في رحلة ثقافية إلى خارج روسيا فترة من الزمن.

ولن أستطيع – مهما قلت وأعدت – أن أصوّر مقدار ابتهاجي بهذه المفاجأة الجميلة؛ لا لأني لم أكن أتوقعها أو أفكر فيها أدنى تفكير، بل لأني لم أفعل ما أستحق به هذه المكافأة الجزيلة.

ولا ريب في أن توفير هذا المبلغ قد كلف أمي عناءً باهظًا، وساعات لا حصر لها من العزف على البيانو، كل هذا من أجل هدية لم تعدني بها، وليس لها مقتضى!

قدرت هذا. ومع ذلك لم يطاوعني قلبي على الرفض!

ولم يكن اختيار برنامج رحلتي أمرًا شاقًا.. ففي تلك الأيام كانت كل

جامعة في أوروبا على علم ببرامج ومناهج الدروس في سائر الجامعات الأخرى، وفي ذلك اليوم نفسه حصلت من مكتب الاستعلامات على وثائق بها معلومات تفصيلية عما يدور في أهم الجامعات من دروس ومحاضرات ومؤتمرات في الفصل الدراسي الصيفي من عام ١٩١٢. وكان أهم هذه المعلومات برنامج مطبوع أصدرته جامعة ماربورغ قبل ذلك بأسبوعين فقط، ووصل بالبريد الأخير.

ولما راجعت هذا البرنامج، والقلم الرصاص في يدي، أدركت لأول وهلة أنني لن أحيد عن خطتي التي سأرسمها سلفًا لأي سبب من الأسباب، ولن يغريني شيء في الطريق بالانحراف عنها.

وبطبيعة الحال كان برنامج رحلتي متقشفًا تقشفًا اسبرطيًا بمعنى الكلمة؛ فالسفر بالدرجة الثالثة داخل روسيا، أما خارج حدودها، فالدرجة الرابعة في قطارات ألمانيا - أينما وجدت تلك الدرجة- وفي أبطأ القطارات، لأن القطارات السريعة أكثر نفقة، وليس بها إلا الدرجتان الأولى والثانية عادة.

وستكون إقامتي في كوخ متواضع جدًا في حي متطرف أو قرية قريبة من المدينة، أما طعامي، فلن يعدو السجق، أو الشاي، والخبز طبعًا، لملء أكبر حيز من المعدة!

ولا شك في أن تقديري التام لما تجشمته أمي من تضحيات في سبيل توفير هذا المبلغ لي، كان أكبر حافز لي على التقتير والصمود للإغراء، كي أفيد من تضحيتها أقصى فائدة ثقافية في الإمكان.

وعزمت على أن يكفيني هذا المبلغ للقيام بجولة في ربوع إيطاليا ومزاراتها ومتاحفها الفنية أيضًا، مع علمي بأن جانبًا كبيرًا من الميزانية سوف تستنفده رسوم القيد في الدروس الصيفية بالجامعة الألمانية، ورسوم شهود المؤتمرات الدراسية المختلفة.

شعرت أن هذا الاقتصاد الشديد واجب أخلاقي، أدين به إزاء والدتي، بحيث كان يستحيل على الخروج على ذلك البرنامج المتقشف، حتى ولو كان المبلغ المتاح لي عشرة أضعاف المائتي روبل؛ فقطعت على نفسي عهدًا أن المشاق مهما اشتدت لن تكرهني على ركوب الدرجة الثانية بحال من الأحوال، وأن الإغراء أو الجوع لن يحملني على ترك آثاري على مفرش مائدة في مطعم، ولو مرة واحدة أثناء الرحلة!

كنت عنيدًا قاسيًا على نفسي في تلك الفترة، والحقيقة أن حب الراحة أو إيثار نفسي بالترف لم يعرف طريقه إلى حياتي إلا بعد الحرب العالمية.

أخذ الثلج يذوب رويدًا رويدًا، والقطار يقطع بي المسافات الشاسعة، وصفحة السماء تتكشف للأنظار شيئًا فشيئًا من تحت ركام السحاب، كلما أوغل بي القطار، وكأنها صورة جميلة تخرجها يد غير منظورة من تحت غطاء أغبر كثيف.

وعن يمين وشمال، طولاً وعرضًا، كانت أشجار التفاح البولندي في ذروة ازدهارها البهيج، وأنا لا أمل النظر إليها من بكرة الصباح إلى ظلمة الغسق، من وراء زجاج النافذة.

ودخلت برلين...

وخُيل إلى أنها مدينة أطفال صغار، انهالت عليهم بالأمس فقط هدايا الأبوين، وكلها من السيوف، والخوذات، والغلايين، والدراجات، والملابس الجديدة المزركشة بالأوسمة العسكرية، فراحوا يختالون فيها فرحين بتقليد الكبار والبالغين!

كان الزهو يملأ نفوسهم ويفيض من عيونهم، وكأنهم غير مصدقين ما صاروا يتقلبون فيه من الثياب والأسلحة والأدوات.

ومن واجهة مكتبة كبرى في شارع من أهم شوارع برلين، وقعت عيني على كتاب ناتورب في المنطق، ولم يقعدني ثمنه الباهظ بالنسبة لميزانيتي المحدودة عن الدخول لشرائه، وأنا فخور بأنني سأرى المؤلف شخصيًا في اليوم التالي بالجامعة، وكنت قد قضيت اليومين السابقين بالقطار لم يغمض لي جفن، وكنت واثقًا أن الليلة القادمة ستكون أيضًا ليلة نابغية، لأن الدرجة الثالثة في القطارات الألمانية لا تصلح مقاعدها أسرة للنوم.. فهذا النظام غير معروف إلا في روسيا، فالمسافر في الخارج بالدرجة الثالثة عليه أن يدفع ثمن تقتيره على نفسه الرقاد إرهاقًا، لا يظفر إلا بتهويم، يسير وهو جالس في مكانه، ومع أن الليلة الأخيرة كانت مقصورة القطار فيها خالية تمامًا إلا مني، لم أظفر بنوم منتظم، لأن المحصل كان يمر في كل محطة ليراجع تذكرتي، ولأن ركابًا متفرقين كانوا يركبون ويهبطون بين المحطات الصغيرة، أجل، كانوا يفعلون ذلك في صمت تام، بيد أني كنت أستيقظ، ولا أعود للنوم إلا بمشقة، وللحظات معدودات.

ومع الفجر بدأت أتطلع من النافذة إلى البلدان الصغيرة التي يقف بها

قطاري. وللمرة الأولى تكشفت أمام ناظري حقيقة تاريخ العصور الوسطى، فكلها بلدان نشأت في تلك العصور، ولم تزل تحمل طابعها الساحر، العتيق، المهيب.

كنت قد قرأت عن تلك البلدان جميعًا، وعرفت تاريخها، وما اقترن بأسمائها من أحداث، ولكن لا شيء يعدل الرؤية، وليس الخبر كالعيان، كما يقولون!

كانت أسماء المحطات ومشاهدها تنقل إلى وجداني عالمًا جديدًا، وكأن ما وعته ذاكرتي من تلك الأسماء والمعلومات، نقود معدنية عتيقة صدِئة وجدت من يجلو عنها الصدأ، ويردها إلى بهائها وجدتها.

وعندئذٍ أدركت مدى الصدأ الذي يرسبه المؤرخون فوق الكائنات البشرية الحية، وللمدن حياتها كالبشر ولا مراء!

كانت الأسوار والقلاع بنقوشها، وتماثيل فرسانها وغاداتها ووحوشها، تتغير معالمها من مدينة إلى أخرى، ولكنها تكون بتواليها أنغام معزوفة واحدة، متناسقة، رغم تغيرها، بل إن تغيرها هو قوام ذلك التناسق نفسه!

والبيوت العصرية، لم تكن معدومة الصلة بهندسة الأبنية القديمة، فعلي توالي العصور ظلت لكل مدينة مسحتها في البناء، كما يحتفظ الأحفاد بسمات الأجداد، وأن تغيرت ملابسهم، وزينة رأسهم.

وبين الحين والحين، كانت الريح تهب إعصارًا يحمل دخان المصانع القاتم، ويكاد يزهق الأنفاس، فأسرع بإغلاق النافذة، وأعجب لسرعة تغير الجو وتقلبه بين الإشراق والتجهم، في هذه الطبيعة الجرمانية الكثيرة الأعاجيب.

ولابد لي في هذا المقام من كلمة عن البلدة التي كانت الهدف الأساسي من رحلتي الطويلة المضنية، وعن أسباب تعلقي بها.

كانت مدرسة ماربورغ الفلسفية كيانًا رائعًا خلقته العبقرية الألمانية. وكان كوكبها الساطع هو كوهن، وقد سبقه في التمهيد لمجد تلك المدرسة سلفة في كرسي الفلسفة بها العلامة.

فريدريك البرت لانج، وترجع شهرة كوهن عندنا إلى مؤلفة الفذ في "تاريخ المادية".

وسر جاذبية مدرسة ماربورغ أنها تمتاز بسمتين بارزتين، لهما عندي مكانة خاصة:

السمة الأولى: هي استقلال تلك المدرسة؛ فهي تقتلع الأفكار القديمة من جذورها، لتقيم بناءً جديدًا في أرض خلاء من الأنقاض، ولم تستطع المذهبيات التقليدية أن تسيطر على تفكيرها أو تكبله وتعوق حرية تقدمه، فليس للفكر من عدو مثل هذه الوثنيات العلمية التي يتهيب الناس أسماءها الرنانة، وتزيد المُلم بها جهلاً وغباء؛ لأنها لا تصل إليه غالبًا إلا عن طريق نصوص أصحابها الأصلية، نقلاً عن ناقل عن ناقل آخر، إلى عشرة طبقات من المفسرين والناقلين والرواة. وما آفة الأخبار إلا رواتها كما يقولون.

وما ظنك بهواء تنفسه عشرة من قبلك؟ ما أحوجك أذن إلى هواء طلق متجدد!

وإلى النصوص الأصلية التي تحمل توقيع أصحابها وطابعهم الأصيل

الطريف تعود مدرسة ماربورغ، كي تضع تاريخ المعرفة الإنسانية الحية، وتسجل تطوراتها ونموها أو انتكاسها.

وكان اهتمام المدرسة موجهًا لا إلى تطور التفكير الفلسفي والنفسي والمنطقي فحسب، بل إلى تطور المعرفة العلمية وتطور مناهجها في غضون خمسة وعشرين قرنًا من الحضارة.

وهكذا وجدت الفلسفة الحقيقية مَن يُجدد شبابها في تلك المدرسة الفكرية الألمانية، ويحررها من أثقال الخمول.

أما السمة الثانية فهي غير منفصلة عن السمة الأولى، بل هي لازمة عنها؛ وهذه السمة هي الاهتمام بالتطور التاريخي، اهتمامًا يقوم على اختيار الأحداث وتقييمها بقيمتها التطورية، لا بضخامتها المظهرية، وهذا التصنيف الدقيق لقيم الأحداث التاريخية هو الذي يجعله مادة حية متكاملة، لا وثائق ميتة في أوراق يدرسها شيوخ فانون غافلون عن الحياة.

وفي هذا السبيل، كان علماء ماربورغ لا ينفكون يستخرجون الوثائق القديمة ليحلوا رموزها من جديد، وليلقوا عليها أضواء جديدة كاشفة، ويمتد نشاط هؤلاء العلماء إلى عصر النهضة في إيطاليا، إلى الملكية في اسكتلندا، وإلى الثورة وما قبلها في فرنسا.

وما من شك في أن هذه النظرة إلى التاريخ تحمل طابع المنهج الذي أحدثه هيجل، وبمقتضاه تكون كل واقعة تاريخية ذات مغزى كلي يتجاوز نطاقها المحلي وعصرها، أنها وليدة ما سبق في كل مكان من الدنيا، ولها آثارها المتفاوتة فيما سيكون بعدها في كل مكان من الدنيا أيضًا.

ولذا كانت الظاهرة التاريخية في تلك المدرسة ترتبط ارتباطًا وثيقًا لا بالسياسة والأدب فقط، بل وبتطور الملابس وطراز الزيّ وأذواق الناس في الطهو واللهو!

ولعل هذا يفسر مبلغ طرافة تلك المدرسة الفكرية الفريدة وتعمقها الجذاب، الذي يغري عقلا شابا كعقلي، ويفتح أمامه آفاقا من الاستشراف الفكري والوجداني بعيدة المدى في مستقبله.

لما تفارق فمي كلمة "ماربورغ" طيلة العامين السابقين لرحلتي هذه إليها فما من كتاب يتحدث عن الإصلاح الفكري منذ عهد النهضة يغفل هذا الاسم، ولو كان كتابًا من كتب المدارس الثانوية، وفي كل سيرة كتبها الكاتبون لترجمة حياة الفيلسوف شهيد حرية الفكر جوردانو برونو، لابد أن يذكر اسم ماربورغ؛ لأنها من أهم الجامعات التي دعته لإلقاء محاضراته فيها، وهو في طريقه من مقامه في لندن إلى مسقط رأسه.

وأخيرًا.. وقف القطار في المحطة، وخطفت حقيبتي خطفًا ونزلت مسرعًا، متلهفًا، إلى أرضها الموعودة..

ووقفت أدير عنقي وأرفع رأسي إلى فوق متطلعا في انهيار، وقد تسارعت أنفاسي؛ فمن فوقي ربوة عالية الذري، تتربع على قمتها أبنية الجامعة، والبلدية، والقلعة العتيقة التي سلخت من العمر أكثر من ثمانمائة عام، لم تستطع أن تنال من شموخها وصمودها وهيبتها..

وما أن خطوت إلى داخل البلدة عشر خطوات حتى نسيت تمامًا أين أنا!، نسيت كل رباط كان يربطني بالعالم الخارجي، تركت هذا كله في عربة

الدرجة الثالثة بالقطار، ولم يعد سائر ما في الدنيا على خاطري المبهور إلا كما ترد ذكريات المقعد الخشبي الصلد، والمشجب، ومنفضة السجائر في ذلك القطار الملعون!

وفوق برج الساعة الشامخ كانت السحب تتجمع، وكأنها موكب من مواكب الحراسة، لا ينبغي له أن يفارق ذلك الموضع الجليل!

وكان سكون الظهيرة رائنًا من حولي، وأنا أرنو إلى السهل المنبسط تحت أقدامي، وكأن الكون كله يشارك في انبهاري الخاشع.

الشوارع من تحتي تتدرج، بعضها دون بعض، وسقوفها تتدرج، بيضاء، وكأنها مرج كبير من مروج النرجس الناصع الأنيق، والأطيار، تروح وتغدو شادية.

أما الناس، فلم أكد ألقي إليهم في وقفتي بالاً.

إن الشوارع كلها تبدو في تدرجها وكأنها أقزام تتعلق بأذيال الربوة التي يعلوها أبراج القلعة والجامعة، والبيوت من هذا الارتفاع كأنها دمى صغيرة، في مهرجان للكرنفال. وقد تقاربت تلك البيوت على اختلاف أقدارها، كأنها تتلامس بالأيدي، كما تتشابك أيدي الراقصين في عيد من الأعياد الشعبية.

ثم تنبهت للناس من حولي، فأدركت أن ما أراه ليس منظرًا سحريًّا، وإنما هو مدينة حقيقية، وأنه لا يسعني أن أظل واقفًا هكذا أنظر حولي، بل لابد من الاستقرار، وأن أستعد لتلك الإقامة بالتوجه إلى ذلك النزل الرخيص الذي كنت قد حصلت على عنوانه من "سامارين".

القسم الثاني

رَأدُ الضُّحى

اكتريت حجرة في ضاحية قريبة من المدينة، في بيت من بيوت الصف الأخير، على طريق جيش، وفي هذا الموضع تتراءى أشجار الكستناء المزروعة على ضفتي الطريق الكبير طويلة، سامقة، تتلاصق أغصانها، كأنها صف من الجنود الواقفين في عرض، قد تلاصق كل كتف منهم بكتف، وأمام بيتي كان صف الأشجار ينحني فجأة إلى اليمين، كما ينحرف صف الجنود في تمريناتهم، ولا يلبث الطريق أن يختفي بعد ذلك في جوف الغابة.

وكانت لحجرتي شرفة صغيرة جدًا، تطُل على حديقة مطبخ الجيران، وفي هذه الحديقة قفص كبير للدجاج، كان فيما مضى عربة من عربات ترام ماربورغ، ثم أبلتها يد الزمن، وصارت مركبًا للدواجن بعد أن كانت مركبًا للإنسان..

وصاحبة المسكن الذي استأجرت حجرة فيه امرأة عجوز، كان زوجها كاتبًا في بعض الدواوين هناك، ثم مات عنها وعن ابنتها؛ فهما تعيشان معًا على معاشه الضئيل.

وما أعظم الشبه بين الأم والبنت!

فكلتاهما مصابتان بداء البدانة، الذي ينجم عن اختلال عمل الغدة الدرقية، فكلما مرت إحداهما أمامي، اتجه بصري في تلصُّص لا أستطيع

مقاومته إلى موضع القب من الثوب، ويخيل إلى أن النتوء في نحرهما أشبه الأشياء بالبالونات التي يلهو بها الأطفال، مربوطًا بعضها إلى بعض ربطًا وثيقًا.. ولعلهما كانتا مدركتين لما يجول بخاطري!

ومن عيونهما الجاحظة – التي كنت أحس رغبة في إخراج شيء من الهواء منهما عن طريق الضغط على زورهما – كانت تطل على العالم نظرة نموذجية للتقوى كما يعرفها أهل بروسيا!

ولكن هذا النمط من النساء ليس هو نمط ذلك الإقليم من أقاليم ألمانيا، الذي تتوسطه ماربورغ؛ فهاهنا يحس الإنسان بطابع ألمانيا الوسطى، ألمانيا التي هبّت عليها باستمرار نسمات ورياح شتى، قادمة من النمسا، ومن سويسرا، ومن فرنسا، فنلمس ثمة أثر ذلك اللقاح في الأفكار والأذواق، بل وفي الطبيعة النباتية للإقليم.

أي توافق عظيم بين صفحات يقلبها الإنسان في كتب لابنتز وديكارت، وبين أوراق النبات الناضرة التي تتسلق النوافذ في غزارة وتشابك محير، لذيذ. ومن وراء تلك كنت أرى الحقول والمروج وهي تنداح إلى بعيد، وتصل طلائعها إلى بيت الدواجن تحت أقدامي..

والبيادر والأجران متناثرة طولاً وعرضها على مرمى الطرف. وعند التقاء الأرض بالسماء، في خط الأفق كنت ألمح طريقًا آخر يفضي إلى المدينة، وأهل ماربورغ يسمونه "طريق الحفاة"!؛ وهي تسمية ترجع إلى القرون الوسطى، عندما كان رهبان الفرنسيسكان يسمون على لسان العامة الدراويش "الجوالون الحفاة".

والشتاء أشبه بأن يفِد على المدينة من هذا الطريق في كل عام؛ فمنظره من شرفتي الصغيرة يوحي بهذا، ثم تعي ذاكرة التاريخ أحداثًا جسامًا وأرزاء متوالية اقترنت به. ففي هذا الطريق سارت جيوش حروب الأعوام الثلاثين، وعليه درج هانس زاكس، وما أشبه القوارع بالشتاء في هجومه القاسي! ومن الشمال يأتي الشتاء بثلوجه، وتأتي الجيوش بويلاتها.

ووراء أحد أركان البيت، متواريًا بالشجر، يجري نهر "لان"، ومن ورائه سكة الحديد.. وفي المساء كان صوت الموقد الخافت المنتظم كثيرًا ما تقطعه رنات الجرس الآلي عند بوابة المزلقان، ثم لا يلبث القطار أن يمرق مروقًا سريعًا.

ومن بعيد، كانت تبدو في الليل أنوار "ماربورغ" من فوق ربوتها، وكأنها روح أسطوري يهمس بأسراره للمروج، وللنهر، في تلك الظلمة المأنوسة؛ فلو جاء آل جريم –كتاب الأساطير المشهورين – إلى هنا، كما جاءوا منذ مائة سنة للدرس على يد فقيه من أكبر فقهاء القانون، لخرجوا من هنا وقد تغيرت وجهتهم في الحياة هذه المرة أيضًا، ولتركوا دراسة القانون، ليجمعوا من أفواه الناس، ومن الربوة والنهب والمروج، أساطير جديدة!

وحصلت من ربة الدار على مفتاح للباب الخارجي، ثم مضيت إلى المدينة التي سحرتني من شرفة حجرتي، فلم أجد في الشوارع أحدًا من أهل البلدة المحترمين، فهؤلاء ينامون في ساعة مبكرة، ولم أرَ حولي إلا طلابًا معظمهم من الغرباء.

والطريق الذي بدا واسعًا منبسطًا، أخذ كلما اقتربت من الجامعة يتجه

للارتفاع، ويأخذ في الضيق، وفي واجهة بيت غطاه غبار الزمن، رأيت بابًا زجاجيًا ضخمًا يفضي إلى دهليز طويل، ينتهي إلى صخرة بارزة من تحتها هاوية، وفوق الصخرة شرفة ممهدة، عليها أرائك ومقاعد مصفوفة، تحت ضوء المصابيح الكهربائية، وموائد صغيرة.

ومن أعماق الهوة تتصاعد رطوبة تزيد من برودة الليل، وإلى هذا المقهى كان يختلف جماعة من المفكرين والفلاسفة، وقد عرفت هذه الموائد ج. ول، وغيرهما من الروس والألمان المشاهير، الذين ظفروا فيما بعد بكراسي الأستاذية في بلادهم، أو في جامعات أخرى خارج البلاد.

كان هناك خليط عجيب من الدنمرك، والإنجليز، واليابان، والروس وسائر الأمم، جاءوا كلهم من أربعة أركان المعمورة لكي يحضروا دروس الأستاذ كوهن، ولكن صوتًا فذًا كان يرتفع فوق رطاناتهم جميعًا – وهو صوت محامٍ من برشلونة – اشترك في الثورة الإسبانية الأخيرة، وقد سمعته هناك لأول مرة يتحدث للجلساء عن الشاعر الفرنسي فيرلين.

ولم يداخلني الخجل والانطواء عن المجموع، وكأني أعرفهم منذ زمن بعيد، وما كان أشوقني للاندماج في المناقشات، والأمل يملأ جوانحي أن أقرأ لابنتز على الأستاذ هارتمان، وأن أدرس قسمًا من أقسام "نقد العقل العملي" على رأس المدرسية كوهن.

وكنت قد كونت لذلك الفيلسوف صورة على ضوء ما سمعته عنه، وما قرأته له، وداعبني الرجاء أن أسترعي انتباهه ذات يوم، فيدعوني للعشاء في يوم من أيام الآحاد، على عادته في دعوة النابهين من طلابه، وكانت هذه

الدعوة غاية ما يصبو إليه الطالب من رفعة الشأن في نظر زملائه؛ لأنها البشير بمستقبل زاهر في الفلسفة.

وما أكثر الليالي التي قضيناها نحن الطلاب الشبان على تلك الصخرة، نتقاذف الحجج، ونتبادل الرأي، إلى أن ينطفئ نور الكهرباء، وتشرع أشعة الفجر في الانبثاق.

وفي تلك الأيام، وصلت الشقيقتان ف... إلى ماربورغ، وهما تنحدران من سلالة عريقة، وأسرتهما واسعة الثراء.

وحينما كنت مقيمًا في موسكو – وأنا بعد طالب في نهاية المرحلة الثانوية – كانت تربطني صداقة قوية بكبراهما، وكنت ألقنها دروسًا خاصة، الله وحده يعلم في ماذا، وفي فترات غير منتظمة. وبعبارة أدق، كانت أسرتها تدفع لي أجرًا على ثرثرتي معها في أغرب الموضوعات، وأكثرها بعدًا عن الواقع وأعصاها على التوقع والتخمين!

ولكن في ربيع سنة ١٩٠٨، جاء موعد الامتحان النهائي في مدرستي ومدرستها في وقت واحد، فحاولت أن أوفق بين دروس كبرى الشقيقتين وبين استعدادي الكامل للامتحان.

ونشأت لدي مشكلة، فإن معظم أقسام المقرر، وموضوعات الامتحان، تتعلق بفصول من المقررات أغفلت الانتباه لشرحها في الفصل، وليس لدي الآن وقت كاف للإحاطة بها وحدي، ومع هذا لم أكن أبالي بضيق الوقت، ولا بساعات النوم واليقظة، وانتهز كل فرصة كي "أخطف رجلي" إلى بيت آل ف.. لأساعدها في دروس تختلف كثيرًا عن دروسي.

فمع إنها كانت طالبة بالمدرسة الثانوية أيضًا، إلا أن دراسة البنات كانت حينئذ تختلف تمامًا عن دراسة البنين من حيث المناهج والمقررات، وكان هذا يزيد مشكلتي تعقدًا، ويزيد ذهني اضطرابًا، بيد أنني لم ألاحظ هذا في غمرة عواطفي وأشواقي.

وما كانت هذه العواطف مجهولة لي، وأنا أعيش في جوها الساخن منذ الرابعة عشرة!

وكانت هي فتاة جميلة فاتنة، ذات تربية كاملة وتهذيب، وفيها مع هذا أثار ذلك التدليل الذي أغرقتها فيه منذ نعومة أظفارها مربية فرنسية كانت تحبها حب العبادة، وظلت هذه المربية مقيمة بالبيت، قائمة على شئون الشابة اليانعة.

ولم يغب عن فطنة هذه الفرنسية العجوز أن الهندسة التي كنت آتي في ساعة شروق الشمس كل يوم لأحمل جناها إلى الفتاة، كانت أقرب إلى أفكار "أبيلار" العاشق المشهور منها إلى أفكار مبدع الهندسة العتيد إقليدس!

ولهذا السبب لم تكن العجوز الماكرة تغادر حجرة الدرس طيلة مدة وجودي، وإن كانت تتظاهر بالغفلة عنا متشاغلة بالقراءة، وحواسها كلها مرهفة!

والحقيقة إني كنت أشكر لها في سري حصافتها وحذرها، فبفضل وجودها دائمًا بيننا أتيح لي أن أكتم عواطفي، لأن العجوز تحرس الباب الذي تحتبس وراءه!

وكنت حينذاك في الثامنة عشرة..

ولكن تربيتي، ما كانت لتطلق العنان لمشاعري على كل حال، وأحسب أن العجوز لو لم تكن موجودة، لكان لي من نشأتي رقيب ووازع يرديني عما يشين، وإن كان لا يرديني عن إلا فضاء العفيف والتقرب الشريف.

وفي ذلك الأوان – أوان الاستعداد للامتحان – كان الشتاء يلم آخر فلوله، والحدائق تتفتح تحت شمس هينة، وعليها غلالات من بقية الجليد المتراكم، تتساقط عنها من كل جانب، فتتكشف عن براعم، وعن أوراق صغيرة خضراء، يقطر منها الماء الصافي، ويصنع ذوب الثلج جداول تترقرق وتجري في كل مكان.

ووراء أسوار الحدائق المتيقظة لأنفاس الربيع الدافئة، كانت الغربان تقف صفوفًا لتستمتع بالأشعة المفتقدة منذ أمد طويل، وتتناغى بصيحات تطلقها في جو المدينة طولاً وعرضًا، عدة مرات في النهار، كأنها على اتفاق في ذلك التجاوب بالنعيق!

والسماء التي لم تزل زرقتها متدثرة بسحاب كأهداف الصوف المندوف، تبدو من خلال النافذة ثقيلة متكاسلة كإنسان يقاوم بقايا النعاس، ويتمطى تحت الأغطية الثقال، ثم بعد صمت قد يطول ساعات، يسمع في الجو صوت مثل قعقعة عجلات حديدية ضخمة، وتفرغ السماء أحمالها فجأة، بحيث لا يكاد المرء يصدق ناظريه، وهو يحسب المسألة كلها لعبة استخفاء كبيرة، ثم لا يلبث المطر أن ينقطع على حين غرة أيضًا، ويسود السكون والأمن.

ولست أدري لماذا ظلت هذه الرؤى منطبعة في سريرتي كل هذه السنوات، تكاد تنبض بالحياة؛ وكأنها سبورة تركت بغير تنظيف، فبقيت الحروف والأشكال والأرقام قائمة، بعد أن انفض التلاميذ، وأقفرت المدرسة، ولم يعد هناك من يعنيه أمر ذلك المكتوب، الذي كان في حينه محور اهتمام عشرات العيون والأذهان!

لست أدري لماذا بقي كل شيء من تلك المشاهد حيًا نابضًا، ربما لأن الوقت كان ربيع العمر كما كان ربيع الطبيعة، ولأن بحيرات الماء المتجمع من ذوْب الثلوج كانت تتراءى كالمرآة المطروحة على الأرض، لا تجد من يعنى بتعليقها كما ينبغي؛ فكل شيء كان فوضى بين الشتاء والربيع، والطبيعة تستعد لاستقبال المالك الجديد، أو المستأجر سيد الأرض إلى حين.

ونحن لم يكن لدينا من الحصافة ما يجعلنا نفكر في هذا السيد المسيطر علينا سيطرة الربيع على الأرض والسماء.

كنت هائمًا بفتاتي ف.

والسيد المهيمن على حاضر الإنسان، هو المستقبل؛ ومستقبل الإنسان الذي لا مستقبل سواه هو الحب. وكنت عاشقًا، فكان ذلك حسبي من الإحساس بالحاضر، والمستقبل.

إن ما يسمى بالمسلك النبيل إزاء النساء شيء له وجود حقيقي، وعن هذا سأتحدث الآن في كلمات معدودات...

لا مِراء في أن هناك قطاعًا شاسعًا من الظاهرات النفسية التي تؤدي

إلى حوادث الانتحار بين الشبان والمراهقين، وهناك أيضًا قطاع كبير من الأخطاء التي تولدها المخيلة الطفلية، والشذوذ الطفلي في التصور والميول والرغائب، والأناشيد العاطفية المفرطة في رقتها المرضية.

وفي هذه القطاعات والمجالات أقمت، ودرجت أمدًا طويلاً من غير أن يخامرني الخجل منها؛ فما معنى هذه الظاهرات جميعًا إذن؟

إنها ولا ريب تمزق المرء أربًا، وتشتته أشلاء لا يجتمع لها نثار، ولا ينجم عنها – من غير أدنى شك – سوى الضرر والأذى البليغ للفتى، وأسوأ ما فيها من سيئات، إن المرء لا يستطيع منها فكاكًا متى دخل في متاهتها، وكأنها بحر من الرمال المتحركة يزداد المرء فيه غوصًا حتى الغرق، كلما حاول استنقاذ ساقيه من لجته الشيطانية.

ومع هذا، فلا حيلة في تجنب الوقوع فيها لتلك الفترة من العمر، فكل من يدخل التاريخ على نحو من الأنحاء، لابد أن يمر بهذه التجربة، فإن هذه الرقة المرضية، وأشعارها السوداوية؛ هي بمثابة الإرهاص الضروري لاكتمال الحرية الأخلاقية والأدبية الناضجة لدى الشاب، فالطبيعة نفسها هي التي تملي تلك الأشعار، وتبخُّر سطورها بعد قليل، هو البشير بأن الزهر قد حان أن يتساقط لتبرز في موضعه الثمرة. ولا ثمرة ما لم تسبقها زهرة، هذه هي سنة الطبيعة التي لن تجد لها تبديلاً.

إن الطبيعة تؤسس المادة على مبدأ المقاومة، وتميز بين الواقع والتخيل بسد فاصل يعرفه الناس باسم الحب، وتعني نفسها بالدوام والإبقاء على العالم عن ذلك الطريق، وهذا هو سر الطاقة العنيدة، والمبالغات السوداوية

التي تقترن بعاطفة الحب، حتى ليصح في تلك العاطفة قول القائل في المثل السائر أنها تجعل في كل خطوة من الذبابة فيلاً مهولاً، أو من الحبة قبة؟

ولكن لا!.

إنني إذ أراجع نفسي أتبين خطأ رأيي هذا، فإن الطبيعة تصنع الفِيلة على الحقيقة لا على المجاز! بل يقال إن هذا هو عملها الأساسي عن طريق التطور، فلماذا لا يجوز لها أن تمارس هذا العمل عن طريق التصور أيضًا؟ لماذا لا تكون هذه السدود التي تقيمها بين المخيلة والواقع – سدود الحب ومشاعره الجامحة – هي مكان الحضانة الذي تنبت فيه الطبيعة بذور التطور الفعلي، وتعد من الواقع الحاضر مشروعات واقع المستقبل، وتنضجها في أُتون العاطفة والرغبة والطموح المجنون؟

أليس من الجائز عقلاً أن يقال إننا في طفولتنا نجنح إلى المبالغة، وأن مخيلتنا يسودها الاضطراب "لأننا" في تلك المرحلة نكون أشبه بالذباب، في حين أن الطبيعة بسبيل تحويلنا من كيان الذباب إلى كيان الأفيال؟

لأمر ما جعلت الطبيعة مسألة "الإحساس" أشد المسائل صعوبة لدى كل كائن حي.. فهي عسيرة لدى الحيوان بصورة معينة، وعسيرة أيضًا لدى النبات في صورة أخرى، أما لدى الإنسان، فقد جعلتها أعسر وأعسر، ولا ندرك مشقتها إلا إذا استطعنا أن نتصور مفهوم الإنسان في مراتب الوجود، كما أبدعت الطبيعة ذلك المفهوم متميزًا، خارقًا، في كل روعته وبهائه!.

إن الإحساس لدينا عسير شاق، لا لأننا نملك قدرة آلية خاصة نتميز

بها عن قدرة الحيوان والنبات؛ بل لأننا – في إرادة الطبيعة – قد حُزْنا قدرة على التخيل المبدع لا حد لها، وأشق ما تكون ممارسة هذه القدرة، كلما اشتد إحساسنا بضآلتنا وهو أن شأننا كأننا ذباب ضئيل حقير، وأشد ما يكون إحساسنا بذباب بيتنا هذا، حين تبعد الشقة بيننا وبين صورة الذبابة في طريقنا إلى أن نصير في صورة الفيل. تلك ضريبة الصيرورة والترقي والنضوج، والوصول إلى مطمع مرموق رسمته لنا الطبيعة، ونحن نحس أنه أشبه شيء بالمستحيل.

وقد أحسن هانز كريستيان أندرسن تصوير هذا الإحساس الغريب الأليم الرائع، وبعبقرية نادرة، في أقصوصة للأطفال المسماة "البطة القبيحة".

إن كل ما كتب عن "الجنس"، بل وكلمة "الجنس" نفسها، تصفعنا بما فيها من تفاهة لا يمكن احتمالها، وفي هذه الخاصية – خاصية التفاهة والابتذال والنكر – سر مغزاها الحاد الخطير الذي ندبت له.

مهمة الجنس الفذة في خدمة الطبيعة لا تؤدى إلا عن طريق هذه الخاصية المنكرة المقززة، لأن كل اتصال بين الجنس وبيننا إنما يقوم على إشفاقنا من الابتذال والتفاهة وتمردنا على هذين المحذورين.. فكل ما ليس مبتذلاً لا يمكن أن يتيح للجنس سيطرته علينا، ولا يمكن له من استخدامنا لأغراضه..

ومهما اشتد تدخل الفكر في الصلة بين الجنس وبيننا، فإن مصير ذلك الاتصال ونتائجه، زمامه بيد الطبيعة وحدها، وذلك ضرب من القدرية لا حيلة في الاعتراف به.

ومركز قيادة الطبيعة لهذا التصرف القدري في كياننا وحياتنا الحسيّة

الجنسية يتمثل في الغريزة. فما الغريزة إلا جيش الطبيعة الذي جندته من شتى عناصرها، وعلى يد الغريزة تمتحن كل محاولاتنا للتخلص والتحرر والإفلات من قدرية الطبيعة، وتمتحن كل أفانين علوم التربية "البيداجوجيا" التي ترمي إلى تبسيط إيحاء الطبيعة تبسيطًا عقليًا مهذبًا.

وإرادة الطبيعة في هذا أحكم وأصح!

أحكم وأصح؛ لأن مشاعرنا يجب أن تقابلها قوة جبارة، ومقاومة هذه القوة الطبيعية العاتية هي التربية المُثلى لكياننا؛ تربية تنضج ذلك الكيان وتفتح آفاقه وتعمقه، ولا عبرة هنا بالتقزز الذي يصاحب القوة التي نبتلى بمقاومتها، بل العبرة بالغاية من تلك المقاومة، وهي غاية شريفة، بل هي أشرف الغايات، لأنها تخلق الإنسان التام من الطفل الناقص، وتحول الذبابة الهيّنة إلى فيل هائل.

ونظير هذا التناقض بين شرف الغاية وخِسة الوسيلة، نجده في بذرة البداية عند الحيوان والنبات. فهذه البداية تحولها دائمًا عفونة الأرض وروث الدواب، ولكن على هذه العفونة الكريهة ينمو الكائن الجديد، ومنها يستمد القوة والوجود! فلا تخدعنا هذه التفاهة الكريهة التي تصفع إحساسنا عن خطورة الدور الكريم الذي تنهض به؛ دور الحال في الخلق!

والحال في الفن كالحال في الإنسان كله.

فالفن ليس موضوعه الإنسان الواقعي الملموس، بل موضوعه صورة الإنسان الباطنة، أو مفهوم الإنسان؛ فتلك الصورة الكامنة حينما يجلوها الفن العظيم تكون دائمًا أعظم من الإنسان نفسه.

وهذه الصورة الرائعة للإنسان لا تتبدى له في جميع حالاته ولا يحس بها في جميع أوقاته، بل في أوقات التحول الحاسمة؛ أوقات تحوله من كيان الذبابة (معنويًا) إلى كيان الفيل، أو تحوله من حبه هينة إلى قبة تبعث في النفس الخشوع والتبجيل.

ما قيمة الصدق الحرفي، الذي لا مجاز فيه؟

لا قيمة له على الإطلاق بالاعتبار الإنساني الأصيل ولنفرض أن رجلاً صادقًا لم يتكلم إلا بالصدق الحر في طول عمره، فماذا يكون من أمره؟

ستمر الأيام – على هذا الفرض – مرورًا فلكيًا، إلى أن تنتهي حياة هذا الإنسان، وما كانت إلا حياة فلكية، قوامها رصد الواقع وتسجيله باللفظ المحدود بحدود الواقع، من غير إضافة بالتصور أو المجاز، وإذا بكل ما قاله من الصدق الحرفي متخلف عن مستوى إنسانيته الحاسة الشاعرة؛ لأنه كان آلة تسجيل ولم يكن إنسانًا.

فهل ينبغي للإنسان أن يكون هكذا أينما كان، وفي كل أوان؟

إنه إذن ينبغي أن يلغي الفن؛ ففي الفن يصمت الإنسان الواقعي الحرفي، وتنطلق "صورة الإنسان" أو مفهومه الباطن ولا محالة في أن صورة الإنسان، أو مفهوم الإنسان، هو الذي يستطيع أن يواكب الطبيعة، تلك الطبيعة التي تقوم انتصاراتها جميعًا على هزيمة الواقع، وتطويره، وتحويله من كيان الذبابة إلى كيان الفيل، ومن المحدود الضئيل إلى ما يسامت المستحيل!

إن كلمة "كذب" الروسية تحمل معنى المبالغة أكثر مما تحمل معنى الغش والخديعة.

وعلى هذا النسق يكذب الفن أيضًا.

فصورة الفن تحيط بالحياة، ولكنها لا تنشد ناظرًا تخدعه بل إنسانًا تصنعه! وحقائق الفن قد تجافي الوصف الحرفي، ولكنها تحمل في طياتها بذور تطورات ساحقة لا نهاية لها.

إن الفن وحده بما يكرره ويعيده من إحساسات الحب طيلة الأعمار والأجيال، هو الذي يند عن سلطان الغريزة التي تزيد من إحساساتنا صعوبة ومشقة؛ لأن الفن نمو روحي يزيد من عمق إدراكنا للحقيقة، ويحفظ علينا ذلك الإدراك، والحقيقة هنا ليست حقيقة الواقع الحرفي، بل حقيقة الطبيعة الكامنة التي تفعل في أعماقنا وفي الكون؛ حقيقة سرها الكامن لا مظهرها المبذول للعيان.

ما أشق هذا كله على التعبير، وما أشقه على الفهم، وما أشق معاناته على الإحساس، ولكننا بغير معاناته لا نتطور، ولا تتلاحق منا أجيال بعد أجيال، كل جيل منها متطور عن سابقه، وليس نسخة منه كما تريد لنا الغريزة أن نكون، وكما تصنع الغريزة في فرائسها من الطير والحيوان والنبات، لولا الحب، ولولا الفن، لسقط الإنسان تحت أقدام الغريزة، ولكنه يقاومها بالحب والفن، وينتصر.

ومهما غلا الثمن، فهو هين في سبيل انتصار الإنسان، وبقاء امتيازه، واستمرار تطوره الظافر، الذي ترمي إليه الطبيعة، والذي تربينا عليه وتعودنا له بما تفرضه علينا في مقاومة الغريزة والجنس، تلك المقاومة المروعة.

فالذوق وحده هو الذي يعلمنا الخلق.

والقوة والمقاومة هي التي تعلمنا الذوق.

فلنقبل على المحنة ولا نضيق بها.

وكانت الشقيقتان تقضيان عطلة الصيف في بلاد البلجيك عندما سمعتا من بعض الناس أني مقيم في ماربورغ. واتفق في تلك الفترة أن دعيت الشقيقتان لحضور مناسبة عائلية جامعة في برلين، فقررتا في طريقهما إلى هناك أن تنزلا في ماربورغ كي ترياني.

وأقامتا في أفخم فندق بماربورغ، وهو مقام في وسط الحي التاريخي الذي يزدحم أكثر من سواه من الأحياء بالمباني التي ترجع إلى العصور الوسطى، ولم أفارقهما طيلة الأيام الثلاثة التي قررتا تمضيتها في البلدة، فكانت حياتي في تلك الأيام الثلاثة لا تشبه في شيء سائر أيامي، إلا بقدر ما تشبه أيام الأعياد سائر أيام العام!

لم أكف في تلك الأيام الثلاثة الفذة عن الكلام. كنت لا أنفك أحدثهما في موضوعات لا أدري كيف كانت تنثال على خاطري، وأكثر من النوادر والطرف، وهما تضحكان لكل ما أقول، فيهيج قلبي سرورهما، ويثلج صدري ما ألمحه في نظرات السابلة من أمارات الفهم الممزوج بالتواطؤ، وكثيرًا ما كنت أدعوهما للخروج معي، وشوهدتا في صحبتي في قاعات المحاضرات بالجامعة، واستمر الأمر كذلك إلى أن حل يوم رحيلهما..

في عشية ذلك اليوم، جلست معهما إلى مائدة العشاء، وقال لي الخادم الأنيق همسًا:

– تناول عشاءك الأخير؛ فغدًا سيكون عندك يوم الصل، أليس كذلك؟

ولم أجد مثل هذا التعبير في صدقه ومطابقته لمقتضى الحال.

وفي الصباح التالي بكرت إلى فندقهما، وكدت أصطدم وأنا أصعد السلم بصغرى الشقيقتين عند قمته، فكفتها نظرة واحدة وأدركت ماذا يعتمل في صدري، وعلى الفور تراجعتْ من غير أن تحييني، وأغلقت على نفسها باب حجرتها!

وتجاوزتها من غير تفكير إلى حجرة الشقيقة الكبرى، وكانت أعصابي في منتهى توترها، وقلت لها بغير مقدمات:

– إن الحال لا يمكن أن يستمر على هذا النحو، إنكِ تعلمين كم أحبكِ! فأفصلي الآن في مصيري!

ولم يكن في هذا الكلام ما يعتبر جديدًا عليها، سوى ما أبديته الساعة من الإلحاح في الإفصاح عن طوايا صدرها ولم تجبني، بل حملقت في وجهي كالمذعورة، ونهضت عن المقعد الذي كانت تحتله، وأخذت تتراجع أمامي بظهرها، وكأن لهفتي عليها قوة مادية تطاردها ولا تجد مناصًا من التقهقر فزعًا منها!

وفجأة، وقد وصلت بظهرها إلى الجدار ولم يعد أمامها سبيل إلى مزيد من التراجع، تذكرت أن هناك وسيلة سهلة جدًا، تحسم بها مسألتي حسمًا نهائيًا، فقالت لي أنها ترفض هواي.

وفي تلك اللحظة قامت ضجة عالية في الدهليز خارج الباب، وعلى الفور تمالكت نفسي بقدر المستطاع، وسمعنا طرقات على الباب، وقيل لنا أن الوقت قد أزف للتوجه إلى المحطة، ولم تكن تبعد عن الفندق إلا مسافة يقطعها السائر على قدميه في خمس دقائق.

وهناك، على إفريز المحطة، فارقتني قدرتي على توديع من أحبها فراقًا تامًا؛ فوقفت كالصنم الأصم، وفي آخر لحظة استطعت أن أدرك حقيقة الموقف: أدركت أنني ودعت صغرى الشقيقتين، وإنني لم أوجه كلمة توديع واحدة إلى الكبرى، كأني أرفض أن أصدق افتراقها عني. وفي هذه اللحظة كان قطار فرنكفورت السريع المتوجه إلى برلين قد وقف أمام الإفريز، وأخذ يجمع ركابه في سرعة خاطفة ثم شرع في الانطلاق إلى وجهته برلين مرة أخرى، قبل أن أفيق من صدمة المفاجأة.

ورُحت أعدو بكل قوتي على الإفريز، بمحاذاة القطار، ثم حين أعياني الجري وكاد الإفريز أن ينتهي، قفزت على سلم العربة التي بها الشقيقتان، قبل أن يغلق المحصل بابها الثقيل.

ووقف المحصل الغاضب يسد عليّ الطريق، وفي الوقت نفسه يمسك بأحد كتفي حتى لا أسقط. وأسرع صاحبي إلى الممر، وأخذت الشقيقتان تتسابقان إلى دس الأوراق المالية في قبضة يد المحصل لتغرياه بتركي وتدبير تذكرة سفر لي معهما؛ فأخذت الرجل الشفقة بحالي، وتركني أسير مع الشقيقتين إلى مقصورتهما الفاخرة، وقد بلغ القطار أقصى سرعته وهو ينهب القضبان نهبًا إلى برلين.

وهكذا عادت حياة العيد التي استمرت ثلاثة أيام من عمري في ماربورغ إلى الاتصال، من غير انقطاع تقريبًا، وقد زاد من حدتها وحرارتها تلك الحركة اللاهثة التي يتحركها القطار بثلاثتنا، وزاد منها صداع ليس ألمه موجعًا؛ بل هو أقرب إلى دوار النشوة منه إلى دوار التألم، نتيجة تلك المغامرة الجنونية التي مررت بها في غير تدبير.

ولم يكن مرامي من القفز إلى سلم القطار إلا أن أودع حبيبتي التي فاتني التزود منها بكلمة وداع، ولكني بعد أن أخلدت إلى جوارها، لم أعد أفكر في ذلك، ونسيت هدفي إلى أن فات أو أن التراجع إلى مستقري في ماربورغ؛ بل لم أتذكر هذا كله إلا بعد أن تنبهت، وأنا في مجلسي بالقطار، إلى أن النهار قد أوشك أن يولي، وبوادر المساء أخذت تهبط من السماء إلى الأرض، وقد دخل القطار تحت سقف محطة برلين المنخفض، وهو يطلق صفيره الحاد!

وكان أهل الفتاتين في انتظارهما على إفريز المحطة؛ فلابد إذن لي من التواري، حتى لا يروني وأنا على تلك الهيئة المشعثة، وأخذت الشقيقتان في إقناعي بأني ودعتهما كلتيهما وأنا شارد الذهن، وأنه ليس أمامي الآن إلا أن أفارقهما.

وتواريت في زحام المسافرين والمستقبلين الذين تعج بهم أرصفة محطة برلين، وأنا لا أدري أين أذهب ولا ماذا أصنع في العاصمة الألمانية تلك الليلة.

وتنبهت لحالة الجو عندما خرجت من تحت سقف المحطة. كانت العتمة

سائدة، والرذاذ المتلاحق يسقط، والضباب يزيد من شدة وطأة الليل، وليس أمامي شيء أصنعه في برلين.

وسألت عن موعد أول قطار يعود إلى ماربورغ، فقيل لي أنه يقوم من برلين في باكورة الصباح، وكان من الممكن أن أبقى في انتظاره وأقضي الليلة في المحطة، في إحدى حجرات الانتظار؛ ولكني تبينت على الفور، وبصفة قاطعة، أني لن أطيق الوجود مع الناس وأنا على تلك الحالة النفسية التي لا مثيل لها.

كانت عضلات وجهي ترتجف ارتجافًا واضحًا، وعيناي يترقرق فيهما الدمع، لا يكاد يفيض عنهما حتى تمتلئ بمَدد جديد من العبرات، وظلت أحشائي تحترق بالظمأ إلى وداع أخير لم أروِ منه غلتي، وكأنه الظمأ إلى نغمة موسيقية، نعبر في روعة وجلال عن الذروة والختام في معزوفة هائلة أحس بها بترت بترا.

وتحت السماء وجدت الدخان يملأ الجو ويكاد يخنقني، كما كنت تحت سقف المحطة، والرذاذ الوخيم يزيد الأنفاس صعوبة، وهو يغلف المرئيات كلها في غلالة ثقيلة الوطأة على النفس المكروبة.

وتنبهت إلى حالي، فأنا خارج من المحطة، غريب في المدينة الكبيرة، بغير معطف، وبغير قبعة، وبغير حقيبة، وبغير أوراق تثبت هويتي.. فما كان السفر قد خطر لي على بال، وأنا أغادر حجرتي في الصباح لتوديع محبوبتي..

وأخذت أطرق أبواب الخانات، خانًا بعد خان، وفي كل منها لا أجد

إلا كلمة الرفض المغلفة بالاعتذار بضيق ذات المكان، بعد نظرة واحدة إلى وجهي المكفهر، وشعري المشعث، وثيابي الحائلة، ويدي الخاليتين من الحقائب التي تدل على صدق قولي بأني قادم من سفر.

وأخيرًا... أخيرًا جدًا، وجدت مكانًا في خان حقير للغاية، حتى أنه لا يستحق أن يسمى إلا اسطبلاً أو مزودًا للبقر، وهناك لم يدققوا في السؤال، وأصعدوني إلى خزانة تحت السقف. ولم أنظر فيما حولي، بل جلست جلسة جانبية فوق مقعد وجدته هناك بجوار النافذة، وبجانب المقعد منضدة صغيرة، وضعت رأسي فوقها.

ولكن لماذا ذكرت هنا وضعي الجسماني على تلك الصورة من التفصيل؟ ذلك أن هذا الوضع هو الذي ظللت عليه طول الليل، ولم أغيره إلا كي أتحسس بيدي بين الفينة والفينة الحائط القريب مني، كأني أريد أن أتأكد من وعيي بما حولي، ثم استأنف النحيب أو النشيج، في صوت مكتوم، وكأني أرثي لنفسي إذ تحققت من إني لم أمُت، ولم أمس نسيًا منسيًا!

وعلى هذا الوضع نفسه قضيت النهار التالي بأكمله، وأنا فوق مقعد الدرجة الثالثة الخشبي، والقطار ينهب بي الطريق نهبًا إلى ماربورغ؛ ولذا ظلت صورتي على هذا النحو الكئيب محفورة في ذاكرتي لا تغيب.

أنه وضع إنسان سقط من شاهق؛ من مكان عالٍ ظل فيه طويلاً حتى ظن أنه لن يهبط منه، ثم فجأة افلتته اليد التي كانت تبقيه هناك، فسقط على أم رأسه.

ولما بدأت طلائع الفجر تتسرب من النافذة، نهضت قائمًا على قدمي الكليلتين، وتطلعت إلى السماء، فإذا الضباب والدخان مخيمان، وإذا الرذاذ لم ينقطع. ما أكأب طلعة هذا الصباح!

ولما كنت قد أديت أجر المبيت مقدمًا، ولم أجد في الردهة أحدًا، تسللت خارجًا من غير أن أكلم إنسانًا، قاصدًا إلى المحطة.

وعندئذٍ فقط رأيت فجأة ما كان ينبغي أن أراه من قبل، ولكن جيَشان عاطفتي وانهمار دموعي حالا دون ذلك. فها هي ذي المدينة الكبيرة من حولي، وقد بدأ عالم الواقع يتجلى لباصرتي، وطلع الصبح على محياي، فأحسست أنه لن يفارقني نوره من بعد أبدًا.

وتبدّد الضباب مؤذنًا بيوم شديد الحر، ورويدًا رويدًا بدأت الحركة تدب في أوصال المدينة، وأخذت العربات والدراجات وأدوات النقل الثقيل تأتي وتروح في كل اتجاه، ومن فوقها في أعنان الجو تحلق الطيور، وعلى الأرض تدب السابلة، وتخطر الجياد والكلاب، ومعها دبت نضارة الحياة بدبيبها المقلق في أعصابي، فقطعت عرض الطريق وأنا أملأ حواسي مما حولي، وكأن رائدًا خفيًا يقودني من يدي. وداخَلني الحياء من استظلالي بهذه السماء الصائفة البديعة في إشراقها الوضاح، وأنا على تلك الحال من الداعي، وتبينت مدى خطئي، ووجوب التماسك والثبات، فكل شيء من حولي باعث على الأمل، موحٍ بالرجاء والثقة في المستقبل؛ ثقة كأنها القانون الذي لا يشذ عنه مخلوق.

ولم أجد أدنى صعوبة في الحصول على تذكرة السفر ثم اتخذت مقعدي

في القطار، ولم يبق وقت طويل على قيامه وسرعان ما وجدت نفسي محمولاً على تلك العجلات تجري بي جريها الدائب الرتيب، متجهًا في هذه المرة من برلين إلى ماربورغ، ولكن كان ثمة فارق ضخم جدًا؛ هو أنني أسافر الآن في وضح النهار، بعد أن اشتريت تذكرتي من المحطة حسب النظام المعتاد. وأنني اليوم إنسان آخر؛ إنسان جديد بالكلية يختلف كل الاختلاف عن إنسان الأمس المتداعي. وأخذت صورة مسكني في ماربورغ تداعب خيالي، وأنا مشوق إلى العودة والعمل.

وقبالتي في المقصورة ثلاثة أشخاص، ظهورهم جهة القاطرة، وقد انصرفوا للتدخين، وأحدهم رجل نصف، على عينيه نظارة بدون إطار من النوع الذي يتعلق بأرنبة الأنف، وكأنها تتحفز للسقوط في أية لحظة فوق الصحيفة التي يقرأ فيها، وهو موظف في وزارة الغابات، وفوق ظهره حقيبة، وعلى الرف من فوقه بندقية صيد.

ولم يزعجني وجود ثلاثتهم، لأن صمتي نوّمهم تنويمًا مغناطيسيًا فيما يبدو، إذ لبثوا صامتين تمامًا، تاركين لي حرية الشرود كما أشتهي، وكانت المدن العتيقة والمشاهد التاريخية تتراءى لنا من النافذة ثم تختفي سراعًا، وأعود إلى تفكيري في مسكني.

ولكن لماذا كنت أفكر في مسكني هذا التفكير كله؟

قبل وصول الشقيقتين بنحو أسبوعين، حدث اضطراب كانت له أهمية كبرى عندي؛ إذ كنت المكلَف بالكلام في مجمعين من مجامع المناقشة، واستكملت أوراقي وبحوثي، وظفرت عليها بالموافقة، ولكن طلب مني أن

أتوسع في الموضوعين، وأضيف إليهما قدرًا من التفاصيل، كي أتقدم بهما مرة أخرى في نهاية فصل الدراسة الصيفي، وراقت لي تلك الفكرة واستثارت حماستي، فأقبلت على تنفيذها بكل هِمة ونشاط، وفي حماسة فائضة.

وهذه الحماسة الفائضة بالذات هي التي ينبغي أن تلفت نظر الملاحظ المدقق وتقنعه أني لن أغدو عالما بمعنى الكلمة على الطريقة الأكاديمية، لأني "أعيش" موضوعي الذي أدرسه بأعصابي أكثر مما أعالجه بذهني، اندمج في موضوعي ولا أرصده رصد المراقب أو المتفرج الخلي.

وهذه الحماسة تجعل لي دائمًا موقفًا شخصيًا معينًا، وذلك مما لا يتفق مع الحيدة الموضوعية المطلوبة في العلم، ومتى اعترض طريقي رأي ثانوي، ورجعت إلى الكتب لاستقصائه، لا يكون رجوعي إليها بغية المعرفة النزيهة الخالية من الغرض، بل بغية العثور على نصوص تؤيد وجهة نظري التي كونتها سلفًا!

وكان من عادتي أن أفتح جميع المراجع على الصفحات التي أريد الاستشهاد بها، وكلما احتجت إلى كتاب جديد فعلت به هذا، حتى جاء وقت كانت فيه الكتب متناثرة في الحجرة، فوق الأريكة، وعلى الفراش، والمقاعد، والمنضدة وعلى حافة النافذة أيضًا! وأي إخلال بموضعها المشوّش معناه قطع خيوط أفكاري، وأما ترتيبها ترتيبًا تامًا بشكلٍ منظم على طريقة ربات البيوت، فمعناه القضاء على عملي كله!

ولذا أمرت ربة الدار ألا تمس بيدها كتبي تلك، مهما اشتدت وطأة

تلك الفوضى على أعصابها الألمانية المولعة بالنظام الدقيق والنظافة المفرطة!

ورضخت السيدة وتركت حجرتي في المرة الأخيرة بغير تنظيف إطلاقًا. وعلى هذه الصورة الفذة، كانت حجرتي تتراءى لي طوال رحلة العودة من برلين؛ فأرى فيها فلسفتي كلها في إطارها الشامل، ذلك الإطار الذي قد يصور قيمتها الحقيقية ومصيرها الأخير.

ولم أكد أعرف ماربورغ عند وصولي إليها، فالتل الذي أعهده لها قد ازداد ضخامة، والبلدة قد انكمشت عند سفحه وازدادت سوادًا.

وفتحت ربة البيت، وصعدت في شخصي نظرها مرات كثيرة وهي لائذة بالصمت، ثم قالت لي بحزم صارم مموه بتأدب:

– ينبغي في المستقبل أن تخطرني أو تخطر ابنتي سلفًا، كلما عنّ لك أن تُقدِم على مثل هذا الأمر.

فقلت لها بكل سذاجة:

– الواقع أني لم أتمكن من ذلك، لأن سفري العاجل إلى برلين طرأت ضرورته فجأة، بحيث لم أستطع التعريج على البيت قبل رحيلي.

فرمقتني بنظرة ساخرة لم تحاول تمويهها. والحق أن عودتي خلو اليدين من أي أثر يدل على قدومي من أقصى ألمانيا إلى أقصاها، وكأني عائد من نزهة ليلية في البلدة أو سهرة حمراء، كان أمرًا بعيدًا عن التصديق في نظرها.

وظنت السيدة الطيبة القلب أن كلامي لا يعدو أن يكون تلفيقًا هزيلاً لا يفي بستر موقفي، لقصور في خيالي، أو لفرط استهانتي واستهتاري، واكتفت بهز رأسها، كأنها تقول:

– أنت وشأنك، مَن زرع حصد...

وقدمت لي خطابين، أحدهما مقفل، والآخر لا يعدو أن يكون بطاقة بريد، والخطاب المقفل من بنت عم لي تقيم في بطرسبورج، وحضرت فجأة إلى فرنكفورت، وذكرت لي في رسالتها إنها ستظل في فرنكفورت ثلاثة أيام، في طريقها إلى سويسرا..

أما بطاقة البريد التي لم تشغل السطور منها إلا ثلث مساحتها، فقد كانت مكتوبة بخط أنيق جدًا ليست فيه مميزات شخصية واضحة، وفي أسفل تلك السطور القلائل إمضاء بخط آخر، وهذا الإمضاء يعرفه جيدًا مَن لهم عهد أو ألفة برسائل الجامعة وإخطاراتها الرسمية.

لقد كانت تلك البطاقة من الأستاذ كوهن، يدعوني للغداء في يوم الأحد التالي...

وعلى الأثر جرى بيني وبين ربة الدار الحوار التالي، أذكره هنا بحروفه تقريبًا، وهو في الأصل باللغة الألمانية:

– في أي يوم من الأسبوع نحن؟

– السبت..

– سوف لا أتناول الشاي هنا..

– حقًا؟

– أجل.

وبهذه المناسبة أخبرك – قبل أن أنسى– أنني مسافر غدًا إلى فرنكفورت، ولذا أرجو أن توقظيني في ساعة مبكرة كي أدرك أول قطار يقلني إلى هناك.

– ولكن –ما لم أكن مخطئة– هناك دعوة من السيد العميد.

– لا تبالي، سأتدبر الأمر.

– ولكن هذا مستحيل.

– لماذا؟

– لأنهم في بيت السيد العميد يجلسون إلى مائدة الغداء في الساعة الثانية عشرة تمامًا، وأنت.. .

ولم أدعها تتم المناقشة، بل نظرت إليها نظرة تعجب ودخلت حجرتي، وهناك جلست على حرف سريري، وشرد ذهني مدة لعلها تتجاوز الدقيقة، ثم تمالكت نفسي وتغلبت على تحسري ووجودي، وأسرعت إلى المطبخ فأتيت منه بمكنسة، وخلعت سترتي، وشمرت عن ذراعي ورحت أنظف ما تراكم من الأتربة.

ولم تنقض نصف ساعة حتى بدت الحجرة على أتم ما يكون من الترتيب، وكأني على أهبة مغادرتها نهائيًا، واختفت الكتب المبعثرة هنا وهناك، إذ حزمتها جميعًا في أربع حزم كبار، توطئة لنقلها إلى مكتبة الكلية في أي يوم، ودفعت بها كلها تحت الفراش!

وفي تلك اللحظة طرقت ربة الدار باب الحجرة، ودخلت لتخبرني بموعد قيام أول قطار صباحي إلى فرانكفورت، وما أن رأت حالة الحجرة في وضعها الجديد حتى ذهلت لحظة، ولم تلبث أن تقدمت نحوي وصافحتني بطريقة رسمية، وقدمت لي التهنئة على الفراغ من بحوثي العتيدة! ولم يطاوعني قلبي على تخييب أملها للمرة الثانية، فتركتها في حسن ظنها بي.

واغتسلت بعد ذلك، ثم دخلت شرفتي وأنا أجفف وجهي بالمنشفة، وكانت العتمة قد بدأت في السدول، وجعلت أحدق في المنظر المترامي تحت أقدامي، وأحاول عبثًا تذكر وقعه على نفسي ليلة وصولي إلى ماربورغ لأول مرة.

وأحسست أن هذه هي النهاية؛ نهاية الفلسفة، وكل ما كنت أعلقه عليها من آمال..

أجل.. إن كل غرام إنما هو مرحلة جديدة في مراحل العمر، ووجه جديد من وجوه الإيمان والنظر.

ومن أعجب العجب أنني لم أعد إلى وطني على الأثر؛ فقيمة ماربورغ كلها في مدرستها الفلسفية، وأما وقد قطعت جبال الفلسفة قطعًا أبديًا، فلم تعد لتلك البلدة أدنى فائدة ترجى عندي، ولا معنى للإقامة فيها بعد ذلك، ومع هذا بقيت، واستجدت لي فيها مآرب أخرى.

فإلى جانب الفلسفة، وغير بعيد منها، دراسات نفسية تتصل بالعبقرية المبدعة ومشكلات الشعر. وإن كانت العبقرية المبدعة تدرك إدراكًا مباشرًا بالممارسة – أي خلال عملية الإبداع الفني نفسها – فلا تحتاج من الفنان إلى تخمين أو تخبط في تِيه الآراء.

إن الفنان ينقطع لحظة الإنتاج عن إدراك الواقع كما هو، لأن الواقع يبدو له عندئذ في صورة جديدة تمامًا، وهذه الصورة الجديدة يتراءى لنا إنها لازمة عن الموضوع نفسه، وليست نابعة من ذواتنا.. فهي صفة موضوعية لا ذاتية..

هذا ما يتراءى لنا.. ويتراءى لنا كذلك أن هذه الصفة فريدة في بابها، ليس لها اسم تتميز به؛ ولذا نسميها "فنًا".

وأهم عنصر، وأبرز عنصر، وأوضح عنصر، من عناصر الفن هو مفهومه، وخير ما في العالم من مبتدعات الفن – على اختلاف موضوعاتها الظاهرية – إنما هي في الحقيقة تصوير لميلادها في نفس مبدعها الفنان، وقد فهمت هذه الحقيقة للمرة الأولى بكل جلالها في الفترة التي ذكرت أحداثها..

ومع أنه لم ينجم شيء يمكن أن يغير من وضعي عن المكاشفة التي تمت بيني وبين ف...، إلا أن تلك المكاشفة كانت مصحوبة بمدهشات أشبه ما تكون بالسعادة، كنت يائسًا فسرّت عني، وكانت أهون لمساتها مصدر بهجة نفسية غسلت بحلاوتها في موجة واحدة طاغية كل المرارات التي سببها رفضها القاطع لهواي؛ ذلك الرفض الذي سمعته منها بغاية الوضوح وكان رفضًا حاسمًا لا رجعة فيه.

كانت أحداث ذلك اليوم أشبه بأرجوحة صاخبة سريعة الرواح والغدو، متلاحقة الدورات، يصيبنا من ركوبها الدوار وتلهث الأنفاس، ولا نكاد نبصر مما حولنا شيئًا.

أهذا إذن هو عالم الكبار، الذي كنت متلهفًا على دخوله والتمرس به، وأنا في باكورة الصبا، تلميذًا يحب تلميذة من أترابه؟

إنني وقد عدت إلى ماربورغ لا أشعر بلوعة فراق الفتاة الصغيرة التي عرفتها زهاء ست سنوات، بل أشعر بحرقة الجوى والوجد لفراق المرأة الناضجة التي تكشفت لي عنها في لحظات خاطفة بعد قرار الرفض.

لكأن كتفي ويدي ليست مني، ولا حكم لي عليها؛ فهي كالمسلطة على تتقاضاني أن أنشد تلك المرأة المحبوبة التي لا غنى لي عنها.

توجهت إلى فرانكفورت للقاء بنت عمي، ولألتقى أيضًا بأهلي الذين كانوا قد وصلوا في تلك الفترة إلى بافاريا، وزارني شقيقي أولاً ثم حضر والدي لزيارتي، ولكني لم أكد ألقى بالاً إلى شيء من هذا كله، لأني كنت منصرفًا بكليتي إلى كتابة الشعر. فكلما سنحت لي فرصة في أية ساعة من ساعات النهار أو ساعات الليل، كنت أنظم أبياتًا تلو أبيات عن البحر، وعن الفجر، وعن المطر؛ بل وحتى عن الفحم الحجري الذي تخرجه مناجم الأقليم المعروف باسم الهارتس.

وذات يوم كنت منهمكًا في النظم بصفة خاصة إلى درجة الإعياء الوجداني، وسجى الليل، وكان ليلاً صائفًا لا تهون من شدة، وطأته نسمة واحدة من أنسام الريح، ولم يكن ثمة أثر واحد يدل على دبيب الحياة في ذلك الليل سوى صفحة السماء الداكنة، وقد انطبقت في تلك الظلمة وكأنها تكاد تتداعى فوق سور حديقة مجاورة.

حاشا، بل كانت هناك أيضًا آية أخرى على كُمون الحياة في تلك

الطبيعة الساجية، ألا وهي تلك الرائحة القوية التي تتضوع من أزهار شجر الطباق، وكأنها استجابة الأرض لنداء الأعياء الذي تمطرها به سماء تلك الليلة الواهنة الأنفاس؛ أما النجوم الكبيرة المتناثرة فبدت لعين الناظر وكأنها أضواء مهرجان حافل تتجمع وتتفرق. ثم على المدى بدأت أحس بها وكأنها ترف رفيف الزهر، وما أشبه النجوم في بعض الليالي بأحواض الزهور ومروجها الفيحاء، حين يجوس خلالها المرء في أمسيات الربيع!

واختلطت في ناظري نجوم السماء وأزهار الحديقة، وكأنها الأرض والسماء أديم واحد بعضه من تحت وبعضه من فوق وداخلني الإحساس أن ذلك الأديم الواحد لا ينبغي أن يتمزق كما تمزقه في العين أنوار النهار.

كنت أكتب باستغراق شديد، وهبّت نفحة هواء حملت التراب الناعم إلى المائدة التي اكتب فوقها، ولكني لم أنشط إلى نفضه عن الغطاء المشمع الناصع؛ وكأني التمس الأنس في صحبة هذا الأثر الوافد من الطريق الكبير، وتراءى لي أن فنجان الشاي الفارغ في نهاية المائدة نجم تهاوى إلى من نجوم تلك السماء القريبة من الأرض في ليلتنا هذه.

وفجأة ثقلت وطأة هذا الإحساس الغريب على نفسي، فانتفضت قائما وأخذت أذرع الحجرة في سخط متمرد، وأنا أود الخلاص من عبء اتصال الأرض بالسماء وأنزع إلى إحساس بالواقع المألوف، وألح على ذهني في تلك اللحظة شبح مسيطر لذلك الرجل العتيد الذي أبقت فجأة من سلطانه ونفضت غبار فلسفته عن حياتي، وقلت كالمخاطب نفسي:

ما هذا الضعف الخائر؟! كأني به لم يزل في نظري ذلك العبقري! إن

دعوته وصلتني منذ ثلاثة أسابيع، ولكني اختفيت عن ناظريه في صغار. لابد من التقدم له بتفسير عن هذا السلوك، ولكن كيف يتسنى لي هذا؟

وتذكرت عندئذ مبلغ ما كان عليه كوهن من صرامة، وكيف كان يروع التلاميذ غير المتخصصين في جلسات الامتحان بأسئلته، وهو يعابثهم ويعبث بهم؛ فيلقي باصطلاح لاتيني ثم يسأل عن ترجمته الألمانية مثلاً، كأن يقول ما معنى الإدراك؟ فيجيبه الطالب أن معناه الفهم، فيقطب العميد جبينه ويقول بتهكم بل معناه الفدم، أو شيء من هذا القبيل يحمل معنى السخرية والازدراء.

وفي مجامع البحث التي كان يعقدها، كان من عادته أن يجعل الموضوع نصًا من النصوص الكلاسيكية. وعلى غير توقع يقطع قراءة النص، ويسأل تلاميذه:

– ما الذي يرمي إليه هذا المؤلف من كلامه هذا؟

وينتظر عندئذ أن يعين له التلاميذ مقاصد المؤلف بدقة كاملة ووضوح شامل، وأن يضعوا خطوطًا تحت النقاط الجوهرية في استقامة على طريقة تقدير الموقف أو التقارير التي يكتبها العسكريون ولم يكن الغموض وحده هو الذي يفزعه، بل كان يكفي لترويعه أيضًا وإثارة اشمئزازه أن تكون الإجابة شيئًا قريبًا من الحقيقة، وليست الحقيقة بذاتها وعلى وجه التعيين والحصر!

وكنت أعلم عنه أن سمع أذنه اليُمنى ثقيل، فتحريت أن أجلس بجواره من تلك الجهة بعينها وأنا ألقى درسي من نصوص كانت، وتركني أسترسل

وأستطرد وأنزلق إلى الحجج والمناقشات إلى أن أخذني على غرة، فسأل بطريقته المعتادة سؤاله الذي لا يتغير:

– هيه! والآن ماذا يريد هذا العجوز أن يقول؟

ولا أذكر الآن موضوع النص وموضوع الإجابة، ولكن لنفرض تقريبًا له من الأذهان أن الموضوع عن جدول الضرب في الحساب، وأن السؤال كان ينصب على حاصل ضرب ٥X٥ وأني أجبته:

– خمسة وعشرون!

فقطب حاجبيه وأشار بيده إشارة الإعراض، وأعقبت إجابتي إجابة لا تختلف كثيرًا في حروفها عن إجابتي، فزاد اشمئزازه لما في تلك الإجابة من جمجمة، وجعل يمط عنقه باحثًا بوجهه الوقور في أنحاء المدرج عن الراغبين في الإجابة؛ يستنفر منهم من يدلي بدلائه، وبطبيعة الحال أخذت إجابتي تتشكل بصور أخرى عجيبة معقدة مع كل إشارة من يد العميد يأذن فيها لطالب بالكلام، فمن قائل "عشرتين ونصف" ومن قائل "ربع المائة" ومن قائل "نصف المائة مقسوم على اثنين" فكان هذا الخليط الخصب من الإجابات يزيد في سخط الرجل ولكن ما من أحد من التلاميذ خطر له أن يعيد الإجابة كما نطقت بها أنا بعدما علق به عليها من نظرة الزراية وإشارة التهويل.

وبعد قليل بدأت تنثال إجابات عجيبة الشأن من قبيل: ٦٢ و١٠٨و٢١٤... وهو في كل مرة يشير بيده إشارة صريحة معناها:

– خيّبك الله!

وأخيرًا بسط ذراعه في إشارة، كأنه يكنس بها جميع تلك الأخطاء، ثم كرر بهدوء إجابتي الأولى!

وعلى الفور تجاوبت القاعة بأصداء عاصفة من الاحتجاج والدفاع عني، وهو يبتسم، إلى أن سكنت العاصفة تمامًا؛ فالتفت نحوي ووضع يده الضخمة على عاتقي، وهز كتف هزًا قويًا وهو يتطلع إلى من فوق إلى تحت، وسألني من أين أتيت، وكم فصلاً دراسيًا قضيت في جامعته، فلما أخبرته قطب حاجبيه قليلاً، وطلب مني أن أتابع إلقاء بحثي، وأنشأ يعلق بصوت خافت بين الحين والحين قائلاً:

– هذا صحيح.. هذا صحيح. أفاهمون أنتم؟ آه آه من ذلك الرجل العجوز!

وكثيرًا غير هذا أذكره من سمات ذلك الأستاذ العظيم؛ فكيف أُجابِه مهابته لأقول له إني لم أُجب دعوته وهجرت دروسه من أجل شيء يسمونه الشعر، وهو شيء بعيد عن الدقة العسكرية والتحديد الذهني يزدريه كوهن.

ولعل هذا كله وقع في شهر يوليو لأن أشجار الليمون كانت عندئذ في أوج ازدهارها. كانت أشعة الشمس الحارة الثاقبة تقتحم الطريق من بين تلك الأزهار الماسية، وتنعكس عليها كما تنعكس على العدسات المرقة؛ فتحدث حروقًا فعلية سوداء مستديرة في الأوراق الخضراء التي يعلوها غبار الصيف الداكن.

وقد سبق لي فيما مضى أن اخترقت كثيرًا من المرات ميدان

التدريبات، وهو دائمًا خال في وقت الظهيرة تملأ جوه سحائب من الغبار، تأتي من الطريق الكبير، وتصل إليه أصداء البلدة، وفي أركان متناثرة من الميدان حلقات صغيرة من تلاميذ المدارس ومن المتسكعين، في داخل كل حلقة منها جنديان يتدربان على المبارزة بالسيف، وقد ارتديا خوذة من المعدن وحُلة مبطنة بصفائح المعدن أيضًا، فتبرق الثياب في وضح الشمس بريقًا يخطف الأبصار.

ولكن هذا المشهد الخلاب لم يكن جديدًا لديّ، فقد شهدته عشرات المرات حتى أدركت شبعي منه في غضون الصيف، ولكن في صباح الغداة من تلك الليلة التي أسلفت وصفها، وأنا أكتب الشعر على مائدة أنست فيها إلى الغبار، حملته دفعة من نسيم الليل، كنت في طريقي إلى المدينة فحاذيت في مروري ميدان التدريب، وعندئذ تذكرت فجأة أني رأيت فيما يرى النائم ذلك الميدان عينه منذ أقل من ساعة!

وكنت قرب الفجر لم أستطع بعد الوصول إلى قرار بصدد العميد كوهن، فأويت مرهقًا إلى فراشي، ونمت طيلة فترة الصباح، وقبل أن أصحو مباشرة، رأيت في الحلم ذلك الميدان ومن المفروغ منه أن موضوع الحلم هو الحرب التالية. تلك الحرب التي بدت لي في حلمي شيئًا مسلّمًا به، كما يقول أصحاب الرياضية، في اصطلاحهم ولا محيص عنه.

ومن المفهوم أن اللوائح العسكرية تنصب كلها على الاستعداد لحالة الحرب عندما تطرأ تلك الحالة؛ أما في أوقات السلم فلم تجرِ العادة بالربط بين التدريبات العسكرية وبين نتائجها المنطقية وهي حالة الحرب الفعلية،

فالجنود في كل يوم يمر موكبهم حول ماربورغ من القلعة العالية إلى ميدان التدريب، وليس من المستطاع مرور صفوفهم وسط المدينة لأن شوارعها مفرطة في الضيق. بيد أن الناس وهم يرون أولئك الجنود عائدين من الميدان إلى القلعة، وقد علاهم الغبار حتى أهداب عيونهم، لا يربطون بين منظرهم وويلات الحرب بل قصاراهم أن يربطوا بين منظرهم ومنظر تلك الدمى الصغيرة لجنود من الرصاص الملون تباع في جميع محلات ألعاب الأطفال، ومع كل مجموعة منها هدية من الصمغ العربي الذي يستطيب الصغار مضغه!

أما في الحلم الذي رأيته ذلك النهار، فالأمر كان مختلفًا عن ذلك كل الاختلاف، ولم تكن معالم الحلم مرتبطة بروابط العادة، بل اتخذت مغزًى جديدًا..

حلمت أني أرى ميدانًا موحشًا، وقال لي قائل غير منظور أن ماربورغ في حالة حصار، وكان الوقت في ساعة من ساعات اليوم، غريبة العتمة لا تشبه في شيء أية ساعة من ساعات الحقيقة الواقعة، والجنود يمرون فرادى، وفي يد كل منهم قطعة من الخشب، وقد علا الشحوب الشديد وجوههم.

وميدان المعركة شبيه بأسلوب الميادين على عهد فردريك الأكبر والخنادق منتشرة ملتوية، وفوق ربوات أعدت للمدفعية، وقف أناس بيدهم المناظير المقربة.. وقد اشتملوا بصمت غريب لا مثيل له في الحياة الواقعية، كان صمتًا له رنين غير مسموع؛ رنين موحش لا يتبدد منه جانب حتى يضاف إليه جانب آخر، كمَن يلقي بالتراب برفش فوق كومة، والريح

تأخذ من تلك الكومة بمقدار ما يضيف إليها الرفش، فيشيع في النفس إحساس خفي حزين بالتبدُّد والضياع، والحق أن ذلك كان أكأب حلم رأيته في حياتي كلها. وعسى أن أكون بكيت وأنا نائم.

ولعل غرامي التعس بالفتاة ف..كان عميق الجذور في نفسي، ولكن قلبي صمد للمحنة، وقمت أعمل بجد وإقبال، حتى لقد قضيت سحابة الليل أنظم الشعر وأتدبر أمر الاعتذار لكوهن، وخواطر النهار ترد على ذهني على غير نسق واضح. ولكن هاهو ذا النوم يدفع إلى مخيلتي بصورة ذلك الميدان في وضع لا علاقة له بتفكيري، فأدرك وأنا نائم أن المنظر يصور الحرب، واهتز له اهتزازًا لا يمكن أن يكون نتيجة لمجرد فكرة الحرب.. اهتزازًا عاطفيًا شخصيًا عميقًا.

ولم أكن أدري وأنا أجتاز بقرب ميدان التدريب قاصدًا المدينة، ماذا أريد أن أصنع في المدينة بالضبط، بيد أن قلبي كان ثقيلاً ورأسي به صداع وخيم؛ وكأنه محشو بتراب متخلف عن أنقاض!

وكان الوقت وقت الغداء، فلم أجد أحدًا من رفاقي في الجامعة، وكانت قاعة البحث خاوية على عروشها، والحرارة ثقيلة الوطأة لا ترحم، ومنازل الناس في البلدة الصغيرة تتدرج، وكأنها ترقى التل نحو الجامعة، ومن النوافذ المفتوحة كانت تتراءى للعين بين الحين والحين أشكال الناس غرقى في العرق، وقد فتح الرجال المحترمون ياقاتهم المنشاة الصلبة التماسًا للهواء وهم يتأهبون للطعام.

وعدت إلى مسكني، وقد قر رأيي على الصعود بعد ذلك إلى قمة

التل، حيث تنبت في ظلال أسوار القلعة العتيقة أشجار وارفة الظل في حدائق واسعة بها (فيلات) جميلة يسكنها الصفوة من وجهاء البلدة وحكامها، وخطر ببالي موضع زرته من قبل، واشتقت الساعة أن أعود إليه حيث المرج غزير العشب ينحدر من القمة ناعمًا تحت أغصان شجر الحور. فهناك أستطيع أن أرتمي على العشب، وأنعم بشيء من الرطوبة والدعة.

وحثثت الخطى أقصد ذلك الموضع المنعزل من قمة التل فعلاً، ولكن خاب ظني في التمتع بالوحدة هناك، لأني وجدت إنسانًا آخر يقف وسط المرج عند منعطف سور القلعة، وعندما فكرت في التراجع، التفت نحوي وسقطت عيناه الثاقبتان علي فلم أستطع التقهقر. ولم يكن ذلك المرتاض سوى العميد هيرمان كوهن بلحمه ودمه!

وكانت عقلية هيرمان كوهن عقلية منطقية دقيقة، تجعل الحديث معه في أبسط الأمور شيئًا مرهقًا مثل التمرينات الرياضية الشاقة التي تدخل فيها جميع الألعاب من شد الحبل إلى حمل الأثقال إلى السير على سلك مشدود، ولا يدري الإنسان إلى أية لعبة من هذه سيقفز ذهن العميد وهو يحدثه؛ ولذلك لم تكن النزهة مع كوهن شيئًا من قبيل المزاح السهل والرياضة المرسلة. فقد يقف أثناء سيره فجأة، ويعتمد على عصاه، وإذا به وقد صار أنموذجًا حيًا للرياضيات الفيزيائية، وراح يثير تساؤلاً سقراطيًا حول منظر بناء أو شكل حجر وعلاقة ذلك بقانون من القوانين العلمية الحديثة، ففي ذهن هذا الأستاذ الجامعي الضخم الجثة تلك العصارة الثمينة التي كانت تحفل بها منذ أجيال رءوس جاليليو ونيوتن ولايبنتز وباسكال، وكل ذلك القبيل النابه من أفذاذ الرجال.

أما أثناء السير، فلا يحب أن يتكلم بل يصغى متجهمًا لثرثرة من يحدثه؛ فإذا أراد أن يعلق أو يسأل، وقف واعتمد على عصاه، حتى إذا فرغ من سؤاله سار خطوات قليلة أخرى إلى أن يحوجه التعب إلى وقفة، فيقف ويلقي سؤالاً عويصًا آخر.

وكان حديثي معه هذه المرة على ذلك المنوال، ولما أشرت إلى ما بدر مني من الإهمال، أحسست أن موقفي قد ازداد سوءًا، وقد أوحى إليّ بذلك الإحساس بطريقة صامتة، ومن غير أن يعلق بكلمة واحدة على حديثي واعتذاري.. ولكنه كان يدق أحجار الطريق بعصاه دقات هينة متلاحقة وأنا أتكلم، حتى إذا لم أجد ما أضيفه وانعقد لساني؛ كفّت عصاه عن دق الطريق، وساد صمت يفيض بالتهكم والزراية.

ولما حدثته عن خططي في اعتناق الشعر، وآرائي في الفن، أبدى اهتمامًا عطوفًا.. ولكنه رأى لي أن أواصل دروسي معه إلى موعد امتحان الدكتوراه، وبعد حصولي عليها رأى لي أن أعود إلى وطني كي أؤدي امتحان الجامعات الروسية العام، وبعدئذ ربما استطعت أن أعود إلى الغرب، وقد يتاح لي أن أقيم في أوروبا الغربية بصفة دائمة.

وشكرت له نصحه وكرم ضيافته، عندما عرض على تلك الضيافة في داره مدة دراستي، ولكن شكري له لم يلفت نظره، كما استرعاه شغفي بموسكو ولهفتي عليها، وأحسست أن تعبيري عن تلك اللفهة، أوحى إليه ببربرية غير معقول لديّ، ارتاع لها العالم الجليل ولم يستطع فهمها، وظهر عليه الانقباض والضيق، وهو يهبط معي منحدر التل في بطء وصمت،

ولعله كان ينتظر بعد تلك الأحاديث المتشعبة أن أقول شيئًا جديدًا يحس به وهو يراود لساني فلا أجسر على التصريح به.

ولكن كيف كان يسعني أن أخبره بما قر عليه رأيي من طلاق الفلسفة طلاقًا بائنًا، وعزمي على استئناف دراستي في جامعة موسكو مثل الجمهرة من أترابي، وأنه لا يخطر ببالي أن أعود إلى ماربورغ التي أغراني باحتمال حصولي على أستاذية في جامعتها.

لم أجسر أن أقول شيئًا من هذا للرجل الذي نذر نفسه لتقاليد الفلسفة العظيمة في إخلاص كان يستدر دموع تلاميذه، وهو يودع كل دفعة من المتخرجين، لم يطاوعني قلبي على توجيه تلك الصدمة إلى من توسم في مخايل نبوغ فلسفي.

في بداية شهر أغسطس، انتقل أهلي من إقامتهم في بافاريا إلى الإقامة بعض الوقت في إيطاليا، وطلبوا مني أن أذهب لزيارتهم في بيزا.

وكانت نقودي قد قارب معينها أن ينضب، ولم يكد يبقى منها ما يكفي لرحلة العودة إلى موسكو.

وفي ذات ليلة واجمة، كنت أتوقع أن تعقبها مثيلات لها كثيرات في المستقبل، كنت جالسًا مع ج... في شرفة المشرب الصيفي الذي تعودنا أن نتردد عليه، وشكوت إليه ما ألقاه من سوء حالتي المالية، وأخذ صاحبي يناقش معي تلك المسألة، وكان قد جرب الفقر والحاجة في ظروف كثيرة قاسية، وفي أثناء تلك الظروف بالذات تجول بين أنحاء العالم شرقًا وغربًا.

ومن البلاد التي زارها صاحبي إنجلترا وإيطاليا، وبحكم الخبرة، كان

يعرف وسائل للعيش بالمجان تقريبًا أثناء الترحال، ولذا كنت أعول عليه في إسدائي النصح السديد في محنتي.

وكانت الخطة التي اقترحها على أن أعتمد على ما تبقى لدي من مال للقيام بزيارة سياحية فنية إلى البندقية وفلورنسا، قبل أن أذهب للحاق بأهلي في بيزا حيث يتولون إطعامي وأحصل منهم على نفقات العودة.

وكان من رأيه أنني إذا أحسنت تدبير ما معي من المال بالتقتير الكافي، سيكون في وسعي أن أستبقي نفقات العودة ولا أحتاج إلى أهلي في شيء سوى الطعام والإقامة في بيزا.

وشرع صاحبي يخط أرقامًا على ورقة أمامه، وخرج من الحسبة بمجموع للنفقات المنظورة شديد التواضع حقًا..

وكان كبير السقاة في ذلك المشرب الصيفي صديقًا لمجموعتنا كلها. وكان على علم بمكنونات صدر كل منا وأفكاره الدفينة، ويعمل على مساعدتنا متطوعًا.

ومن ذلك أن أخي عندما جاء لزيارتي، وأنا في ذروة تجربتي الشعرية المستولية عليّ، وصار يضايقني ويعرقل عملي في النهار، استطاع هذا الساقي الشهم أن يكتشف فيه استعدادًا فذًا لإجادة لعب البلياردو، وعمل على إقناعه بذلك، فصار أخي يبادر كل صباح في ساعة مبكرة بالذهاب إلى المشرب كي يتمرن معه على البلياردو، ويترك لي الحجرة طول النهار!

وهذا الساقي الظريف هو الذي أبدى اهتمامًا كبيرًا بموضوع رحلتي

إلى إيطاليا، ومشاركتنا في مناقشة برنامجها وميزانيتنا، وكان بين لحظة ولحظة يتركنا لتلبية طلبات الزبائن، أو القيام بعمل من أعماله الكثيرة في المشرب، ولا يلبث أن يعود إلينا وينظر في الورقة التي يسطر فيها جـ.. الأرقام، ثم يشطب على بعضها ويعترض على إسرافه، فلابد في نظره من مزيد من الاقتصاد!

وفي ذات مرة، عاد إلينا مسرعًا وتحت إبطه كتاب ضخم من كتب المراجع السياحية، ثم وضع أمامنا خوانًا عليه ثلاثة كؤوس من شراب الفراولة، وتناول الكتاب وراح يقلبه من الغلاف إلى الغلاف مرة ثم أخرى، وأخيرًا وجد الصحيفة التي ينشدها وجعل يراجع سطورها بإصبعه، ثم رفع رأسه وأعلن بأني يجب أن أرحل في تلك الليلة عينها، بالقطار السريع الذي يقوم من ماربورغ بعد الثالثة صباحًا ببضع دقائق، وبهذه المناسبة دعاني للشرب معه على سبيل التوديع..

وكانت الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة بقليل، وقد حصلت من الجامعة على "خلو طرف"؛ وأما إيقاظ ربة الدار في تلك الساعة، فإنه ليس إثمًا خطيرًا، وأمامي متسع من الوقت لحزم حوائجي وزيادة، ولذا لم يساورني التردد أمام إقناع الساقي لي بالرحيل.

وكان هذا الساقي فياض الوجه بالبشر، حتى خُيل إلى أنه هو الذي ستكتحل عيناه غدًا بمناظر مدينة بال.

وقال لي، وهو يقترب مني ويجمع الكؤوس الفارغة:

– هيا بنا، ينظر كل واحد منا في عيني الآخر؛ فهي عادة من عاداتنا، وقد نجد لها فائدة. من يدري؟

فانفجرت ضاحكًا من هذا التفاؤل الغريب، وأكدت له أن هذا ليس ضروريًا على الإطلاق، لأنني كثيرًا ما حدقت في وجهه، ولا يمكن أن أنساه مهما كانت الأحوال.

وودع كل منا صاحبه بمودة، ثم تبعت صديقي ج.. إلى الخارج، وخيل إلى أن هذا آخر عهدي بذلك المشرب ومن فيه..

وبعد بضع ساعات، وقد استنفدنا ما عندنا من موضوعات الكلام المعقولة وغير المعقولة، ونحن نتسكع في مسالك البلدة الصغيرة على غير هدى إلى أن اعترانا الكلال والتبلد، اتجهنا– ج.. وأنا – إلى الحي الذي تقع فيه محطة السكة الحديد.

وكان الضباب الكثيف يلفنا، فوقفنا على أفريز المحطة كالماشية حين ترد المسقاة، وجعلنا ندخن بإفراط صامتين.

وشيئًا فشيئًا بدأ الفجر ينبلج.. ولكن غلالة الظل المتساقط بغزارة ظلت تلف الحدائق في حالة وسط بين الظهور والكُمون، ورؤوس الشجر والأزاهير تتراءى للَمح العين مثل رؤوس عمالقة وأقزام تبرز من غياهب خفية كأنها تتسقط أخبار الشمس.

وفجأة برز شعاع من وراء الجبل، ارتسمت في ضوئه معالم البلدة القديمة فوق قمته العالية، مهيبة واضحة، صامتة، جامدة، ولكن كان وراء أسوارها حياة نائمة، وأنفاس منتظمة، يهدهدها الكرى الآخذ بمعاقد الأجفان، وكنائس، وجامعة، وقلعة تعج بالجنود، ولكن هؤلاء جميعًا مازالوا حتى هذه اللحظة ذائبين في السماء الرمادية اللون، لم تتميز ذواتهم.

وخيل إلي أن المدينة العتيقة توشك أن تتمطى وتطلق زفرة عميقة، وتنتفض فوق قمة الجبل، وقد تهز جناحيها كما هزت جناحيها العقاب، لتتأهب للتحليق.

ونبهني صوت صاحبي ج.. وهو يقول لي:

– هيا بنا، فقد أزِف الوقت.

وأسرعنا نقطع الإفريز الحجري، وبوادر هدير قوي مقبل علينا من بعيد في صمت الفجر، ثم تناثرت في الجو أنفاس البخار القوية فصفعت وجوهنا كالحجارة، ثم وقف القطار، وعانقت صاحبي، ثم ألقيت حقيبتي إلى الداخل، وقفزت إلى السلم، واندفع القطار بي، وقد قطعني عن تجربة كاملة من تجارب عمري، وتعلق نظري من النافذة يترصد البيت الذي كنت أسكنه عند أطراف المدينة الصغيرة، على مشارف الحقول.

ولكن القطار كان يمر بمنحني أثار غبارًا كثيفًا، فلم تستطع عيني – على تلهفها – أن تبصر شيئًا.

وداعًا للفلسفة إذن!

ووداعًا للصبا اللاهي!

ووداعًا ألمانيا!

ومرت ست سنوات. وصار كل شيء في طي النسيان، إذ اندلعت الحرب، ثم تراخت نحو خمود أوارها كما هو معلوم، وشبت في الروسيا ثورتها الكبرى، وكنت ذات مساء جالسًا أرتجف من برد الشتاء، والجليد يغطي الأرض حين رددت جنبات المسكن رنات التليفون في ساعة لا

ينتظر فيها هذا الرنين ولا يستحب:

– مَن المتكلم؟

– جـ ...

وبلغ من شدة عجبي أنني لم أستشعر للمفاجأة عجبًا. وقلت له بكل بساطة كأننا لم نفترق سوى أمس:

– أين أنت؟

وبكل بساطة أيضًا ذكر لي الموضع الذي يتحدث إلي منه. فإذا به البناء المقابل لبيتنا عبر الفناء، وكان ذلك البناء فيما مضى فندقًا، ثم حولته الثورة إلى مقر لإدارة التعليم، وهي الإدارة التي تسمى قوميسيرية الشعب للتربية وذلك ما يقابل وزارة التربية والتعليم في البلاد الأخرى.

وبعد دقيقة واحدة، كنت جالسًا معه، ورأيت زوجته وأطفاله، وعرفت أنه قضى مدة الحرب خارج البلاد، ولكنه لم ينج من شواظها ومتاعبها لأنه شغل نفسه طوال تلك الفترة بمساعدة الأحرار المنفيين في أوروبا على السعي إلى استقلال أوطانهم الصغيرة وخروجها من تحت نير الاستعمار.

ومن حديثه عرفت أنه وصل من لندن من مدة غير طويلة وأنه كان طيلة الوقت إما عضوًا عاملاً في الحزب أو نصيرًا متحمسًا له، وبعد نجاح الثورة التحق بالأداة الحكومية الجديدة، حتى إذا انتقلت الحكومة إلى موسكو نقل معها بطريقة آلية باعتباره عنصرًا من أهم عناصر الجهاز الجديد في قوميسيرية الشعب للتربية.. وهذا هو سر جيرته لنا..

ذلك ما أفضى به إلي، ولم يزد عليه شيئًا، وكنت قد اندفعت إلى لقائه في مقره على ذكرى صحبتنا في ماربورغ، ولم يكن ذلك بالطبع عن رغبة مني في استئناف الحياة معه من جديد، أو بمعونته، لوصل ما انقطع منها ساعة التوديع في الفجر المدثر بالضباب فوق افريز المحطة. كلا لم يكن هذا مرادي؛ لأنه في نظري كان مستحيلاً وغير معقول، ولكن لهفتنا لا تكون على شيء يرد إلينا ذكرى بعيدة كلهفتنا على رد ذكرى لم يعد من المعقول بعث أيامها ولياليها.

***

وأتيح لي فيما بعد أن تكتحل عيناي مرة أخرى بزيارة ماربورغ، ولم أكن أقدر إني سأحظى بشيء كهذا يومًا ما، وقضيت هناك يومين من أيام شهر فبراير سنة١٩٢٣، وكانت تلك الزيارة شاقة على نفسي، لأني رأيت ألمانيا كما كانت قبل الحرب وعشت فيها. وشتان ما بين حال ألمانيا قبل الحرب وبعدها، فهناك رأيت بأوضح صورة وأجلى بيان حقيقة الفظائع التي نزلت بالعالم المتحضر، فكادت تقضي على مدنيته من جذورها.

كانت تلك الزيارة في فترة احتلال وادي الرور، وألمانيا يومئذ منطرحة تحت أقدام قاهريها ترتجف من قشعريرة البرد الذي يُجمّد أطرافها، وترتعد أوصالها وأحشاؤها من وطأة السغب الجائر.

رأيت بعيني رأسي ألمانيا الشامخة متداعية روحًا وجسدًا، لا تخدعها الأوهام ولا تخدع هي بالأوهام أحدًا، وقد مدت منها اليدان تستجدي العون، وما كانت اليد الممدودة يومًا من الأيام سمة من سمات ألمانيا المعهودة، ولكنها الحرب.

وكم كانت دهشتي عندما وجدت ربة داري العجوز في عداد القلة الباقين على قيد الحياة، رغم ويلات الحرب وويلات السلم، وما أن وقع نظرها ونظر ابنتها علي حتى امتدت نحوي أربع أذرع في حماسة وحرارة، كأنما تريد المرأتان أن تستردا بملمسي زمنًا ناعمًا وعيشًا رغدًا خفيضًا تقضي. وليت شيئًا منه يمكن أن يعود.

ألفيتهما كلتيهما جالستين، وكل منهما في موضعها الذي عهدته قبل إحدى عشرة سنة، وكالعهد بهما كانتا تعملان الأصابع في الحياكة.

وفتحتا لي باب حجرتي القديمة. وما كنت لأعرفها لولا أنني عرفت على الفور منظر الطريق الكبير الذي يخترق السهل ويختفي في الغابة، وجعلت أرمق الجدران والأثاث حتى عرفت الآثار بعد توهم. ثم عدت إلى النافذة أحملق في الأفق الممدود، وكان الوقت شتاءً، أضفى على المشهد وحشة.

ولم تحتمل أعصابي وطأة التغير، فودعت السيدتين؛ ولكنني صرحت قبل مغادرة المدينة على المرور بمحل للحلوى، بعثت منه إلى السيدتين فطيرة ضخمة محشوة بالبندق.

أما كوهن... أما هيرمان كوهن العميد العجوز، فكان هيهات لي أن ألقاه مرة أخرى.

كان هيرمان كوهن قد مات.

وفي ذلك الفجر المطلول، انطلق بي القطار من ماربورغ، وتركت على إفريز محطتها صاحبي ج.. وفترة حاسمة من عمري، وودعت مع آخر نظرة إلى أسوار قلعتها العالية الفلسفة والصبا اللاهي وألمانيا.

وراحت المحطات الصغيرة تتابع راكضة على جانبي القطار، بعضها في وهدة من الأرض، وبعضها مستعصم بربوة أو تل، فكأنها فراشات من حجارة تتواثب فوق سطح الأرض هابطة أو محومة.

وفي "بال" وجدت الهدوء، كأن البلدة في عطلة دائمة وبلغ من هدوئها أنك تسمع خفق أجنحة العصافير واليمام، وهي تحط على أفاريز البيوت والسقوف والنوافذ، أما جدران البيوت البيضاء الناصعة، فكانت تبدو كحدقات العيون وراء خمائل التوت الأسود. وأغصان التوت تهتز هونًا في مجرى النسيم، فكأنها أهداب تلك العيون تنفرج ثم يسلبها الغمض.

وهناك تمتزج اللغتان الوطنيتان الفرنسية والألمانية، وتتداخلان على ألسنة العامة والفلاحين في طلاقة وصفاء. وكان أول ما جابهني ذلك، حين سألت فلاحة ترتدي الثياب الوطنية عن ثمن سلعة تبيعها، فكان جوابها جملة العدد فيه ألماني واسم العملة وهو الفرنك فرنسي؛ فكان كلا النطقين صافيًا صفاء الأصالة، بغير لكنة ولا هجنة.

ولكن مبدأ التقاء الرافدين اللغويين ليس في بال بالذات، بل هناك على ارتفاع كبير عن سطح الأرض، عند ممر سان جوتار، حيث تحطم اللغتان الحدود الفاصلة، وتسمع في جوف الليل اللغتين على ألسنة الناس بصورة طبيعية للغاية.

وعند معبر سان جوتار، غلبني النوم على أمري بعد رحلة شاقة، دامت ثمانية وأربعين ساعة، فلم أستطع أن أسهر لأشاهد أروع مناظر رحلتي، وهكذا حرمني التعب من سهر الليلة التي كان ينبغي إلا أنامها

دون ليالي سائر العمر، ومع ذلك استطعت أن أنتزع لحظات من نومي، أقف فيها بجوار النافذة، ولكن النعاس كان يغلبني مرة أخرى؛ فأذكر تلك الآية المشهورة في الإنجيل "أنائم أنت يا سمعان؟" ويغالب سمعان سلطان الكرى وينكر أنه نائم، ويفتح عينيه. ولكن كيف له بفك خيط جفونه على الرغم من كف النعاس العاقد؟!

وتنفس الفجر ينضو عنه ثوب الدجى، وأذن الكرى لعيني أن تتلفتا، فإذا زحام من القمم الشوامخ يأخذ النظر على مدى الطرف. وآهًا لي، لقد انفلت بي القطار وأنا وسنان، يصعد مرقاة وراء مرقاة، وينفذ من أفق تلو أفق، حتى صار في صميم عقدة جبال الألب، وصار الهواء البارد النفاذ فوق مستوى هوائنا العادي بثلاثة آلاف متر، وهأنذا أحس به ينفذ إلى رئتي فيبلوهما بلاء النار للذهب!

والصدى؟!

إن أسوار الجبال التي تترامى صفوفها من كل جهة، صفًا وراء صفٍ، وتعلو ذراها في الجو ألفًا من الأمتار بعد ألف، تردد النغمة الواحدة من الصوت أصداء مكررة تتردد مئات المرات؛ فكأن صفير القطار وفحيح البخار في مطلع ذلك النهار جولة في مجالي وادٍ مسحور، يكاد يفتن الأذن بموسيقاه بل بغرابة الترديد وتكاثر الرجعي نأمة بعد نأمة، حتى لو انفرد المرء في ذلك المكان لداخلته من الصدى المتواكب وحشية تلقي به إلى الجنون!

وأينما ألقى الإنسان النظر، رأى الينابيع والجداول تنساب بين الآكام

والآطام، سلسلة متكررة ذات خرير وبريق، ورذاذها وهي تنحدر حينًا كالشلال من قمة إلى وهدة يتطاير فيصافح الوجنات ويغسل جوانب القطار أو يستقر على سقفه، كأنه صِبية صغار من أطفال الجن ينشدون رحلة معفاة من الأجر!

وتوقف القطار في وسط الجبال لعطب يسير في الطريق. ورأيت صبيًا إيطاليًا حافي القدمين يتقدم إليّ، وتطلعت إلى وجهه فإذا وجهه أشبه بتلك الوجوه التي نراها مرسومة على صناديق الحلوى والشكولاته الإيطالية. وغير بعيد منه رأيت قطيع الأغنام الصغير الذي يرعاه، وقد علقت في أعناقها الأجراس الصغيرة الجميلة، وفي أفواهها بقية من أزهار الجبل وأقاحيه تمضغها على مهل. وحتى الذباب كان يشعر بالبرد، فيطن طنينًا ضعيفًا وهو يحط على العشب المزهر النابت بين الصخور.

وبعد إصلاح الطريق، استأنف القطار مسيره حتى وصلت إلى ميلانو. ولكن الرحلة المجهدة تركت أثرًا حاسمًا في ذهني، فلم تعِ ذاكرتي من الساعات التي قضيتها في ميلانو شيئًا سوى كنيستها الكبرى ذات الجوانب المتعددة والمناظر المتغيرة باختلاف الشوارع التي يسلكها المرء إليها.

وقررت بمجرد وصولي إلى البندقية أن أحظى بما أتلهف عليه. ولم تكن لهفتي على البندقية كي أركب الجندول أو أرى القصور والمتاحف ذات القباب، بل لأنعم بليلة من نوم عميق فوق فراش مستقر وثير.

ولما خرجت من تحت سقف المحطة الذي يشبه في انحداره وهيئته سقوف الريف التي تعلو بعض أبنية المكوس في أطراف روسيا، وجدت

شيئًا ناعمًا يتسلل خلسة من تحت قدمي البليلتين.. شيئًا معتمًا لا تشوب حلكته سوى لمسة أو لمستان من أضواء النجوم المنعكسة فوقه. شيئًا يرتفع وينخفض، ويعلو ويهبط بصورة خفية لا تكاد تلحظ؛ كأنه رسم من الرسوم العتيقة التي بهتت بتأثير الزمن، وإطاره يتأرجح في مهب نسيم رخاء.

ولم أدرك لأول وهلة أن هذه الصورة التي تحت ناظري هي البندقية بذاتها، وليست صورة من صورها، وأني صرت الآن فيها، ولم يعد كل شأني معها أن أحلم بها.

والقناة التي أمام المحطة تدور حول ناصيتها في أنبوب يفضي إلى قناة أخرى، توصل إلى ذلك المتحف العائم الرائع.

وأسرعت إلى مرسى القوارب الرخيصة التي تعوم هناك مقام الترام في سائر البلدان. وفي موعده انطلق القارب، يتهادى في بطء شديد، وفي جهد ظاهر، يلهث، ويسعل، ويجر هيكله العتيق بين القصور المنتشرة على شكل نصف دائرة حول القناة الكبرى.

إنهم هناك يسمون تلك الأبنية قصورًا، وقد يطلقون عليها أسماء أرق من هذه لو وجدوا إلى تلك الأسماء سبيلاً. ولكن ما من لفظ في اللغة يمكن أن ينقل إلى القارئ صورة ذلك البساط الرائع من الرخام الملون الذي ينساب إلى أعماق الخليج.

ويتوقف القارب على هذا الشاطئ تارة، وعلى ذاك الشاطئ تارة أخرى. ويصيح النوتية لتنبيه المسافرين، بلهجة موسيقية خلابة:

فندق الأتراك.. فندق الألمان..

وهي أسماء لا علاقة لها بسكان الموضع، وإنما هي آثار متبقية من عصر القوافل، حين كان لكل فريق من التجار موضعهم ونزلهم الخاص في البندقية.

ولا أذكر متى ولا أين رأيت أول جندول؛ ولكن هذا قطعًا كان في قناة متفرعة من القناة الملكية الكبرى، لمحته ينساب في مجرى ماء ضيق جانبي، ثم يرسو عند بوابة قصر من تلك القصور العريقة التي تحمل إكليل الزمن. والضوء المنبعث من مصباح أثري الشكل في المقدمة ينثر نورًا خافتًا على الأمواج اليسيرة، ويرسم فوق صفحة الماء صورة ملاح الجندول في ثيابه التقليدية. وكنت في الخطة التي رسمتها مع صديقي ج.. قد قررت معه أن خير ما أصنعه في البندقية أن استقر في مكان بقرب الأكاديمية. وهذا ما فعلته، ولا أذكر الآن هل عبرت القنطرة إلى الشاطئ الايسر، أم اني ظللت على الضفة اليمنى، ولكني أذكر ميدانا صغير الحجم لطيف الشكل تحيط به قصور متشابهة، تشبه كل الشبه مثيلاتها من القصور التي تحيط بالقناة الكبرى، وكل ما هناك من فرق، أن القصور المحيطة بالميدان الصغير تحمل آيات القدم ولونها قريب من لون الرماد، ومنظرها أكثر هيبة وصرامة، وأنها تطل على أرض صلدة لا على مجرى ماء.

وفي الميدان الصغير الذي يغمره ضوء القمر، رأيت أناسًا واقفين. ورأيت غيرهم يتمشون الهوينا، وغيرهم أيضًا يركضون فوق المقاعد أو على العشب، لم يكن عددهم كبيرًا، وقد قلل من عددهم الفعلي ميلهم

للتراخي، وحفزهم على ذلك ما تميزت به تلك الليلة من هدوء غير عادي، ولاحظت على الخصوص من بين الناس شخصين يجلسان على مقعد، ولا ينظر أحد منهما إلى صاحبه، ولكنهما مستمتعان تمامًا بهذا الصمت الذي يجمع بينهما، ويحدقان تحديقًا مستمرًا في الشاطئ البعيد، ولعلهما من بعض خدم فندق البلاتز والكبير يستريحان بعد نوبة عملهما.

وقد استرعى انتباهي في البداية منظر الساقي بشعره الأشيب المصفف، ولون سترته الذي يحاكي لون شعره، فقد كان فيه شيء غير إيطالي. شممت منه رائحة نسمات تهب من الشمال، ثم رأيت وجهه فخيل إلى أني رأيته من قبل، ولكن لم أستطع أن أتذكر أين كان ذلك.

وقصدت إليه وفي يدي حقيبتي، وأفضيت إليه بحاجتي إلى مسكن. وكان كلامي بلغة إيطالية شديدة النقص والعجز، حصلت عليها من قراءتي الماضية لشعر دانتي في لغته الأصلية مستعينًا بالقاموس وكتاب في قواعد اللغة الإيطالية.

وأصغى لما أقول بأدب جم، وفكر برهة ثم ألقى سؤالاً على الساقية التي تجلس بجواري، فهزت رأسها سلبًا، فاستخرج من جيبه ساعة ذات غطاء، وتطلع فيها إلى الوقت ثم أغلقها ودسها في جيب صِداره، وخرج من تفكيره بإيماءة أشار إلي بها أن أتبعه. ودُرنا حول ناصية في الميدان، فاختفينا من ضوء القمر، وإذا الظلمة سائدة تمامًا.

وظللنا نسير في طرقات صخرية لا يزيد اتساعها على عرض دهليز عادي. وبين الحين والحين، كنا نعبر قناطر قصيرة مبنية من صخور محدبة،

وعلى جانبي القناطر، ألمح مياهًا راكدة كأنها بساط مطوي لاتطؤه قدم.

وفوق هذه القناطر، كنا نلتقي بعابرين من جهات مختلفة؛ فنميز في الظلام الرجال من النساء من وقع الكعوب العالية على الأرض الصخرة، أما الرجال فكانوا يمرون كالأشباح الصامتة.

ومن فوقنا كانت السماء تتراوح بين الإشراق والعتمة بمرور الغمام المنخفض، وأنا في الوقت نفسه أخرج من النظر فيما حولي إلى التعجب لشعور الألفة الذي يربطني بهذا الرجل الذي التقيت به صدفة، وحدثته بلغة إيطالية شديدة التشويه. وهأنذا أعلو وأهبط في طرق مظلمة ملتوية ناشدًا بمعونته العثور على أرخص مسكن ممكن في تلك الليلة.

وعلى القنوات الجانبية التي تؤدي إلى البحر الكبير، كانت تتلألأ الأنوار، وتحل الضجة محل السكون، ويتجمع الناس ويتزاحمون على الشواطئ وفي القوارب الرائحة الغادية وأمام دكاكين باعة الفواكه والحلوى. وتمتلئ ذرات الهواء برائحة العطر والزهر والفاكهة الناضجة وضحكات الناس وزياطهم.

وعرج بي صاحبي على الباب الخلفي لمطعم كبير من مطاعم الشاطئ، وهنا حصل من زميل له على معلومات مفيدة، ردتنا على أعقابنا إلى بداية رحلتنا؛ فعدنا أدراجنا من الطريق عينه وأخيرًا ألقى الدليل العصا في خان متواضع بالقرب من معسكر موزوزيتي، وقد نال مني الإعياء مناله، ولو سألني في تلك الساعة سائل عن البندقية لقلت له:

– ما البندقية إلا ليلة شفافة الظلمة، وساحات صغيرة، وأناس صامتون هادئون، تشعر بألفة غريبة تربطك بهم.

وقال لي رب الدار بصوت مرتفع كأنه الزئير، ولعله كان يظنني أصم:

– سأهتم بشأنك هنا كأنك من أهل قرابتي.

وكان الرجل في نحو الستين، يرتدي قميصًا قذرًا مفتوحًا، والدم يصعد إلى وجهه وهو يتكلم ويقيس أبعادي بنظرته الثاقبة من تحت حاجبيه الكثيفين. ويضع يديه فوق صدره، وقد عقد إبهاميه بحمالة البنطلون، وجعل ينقر بأصابعه على شعر صدره الكثيف الأشيب.

ومن غير أن ترق نظرته، سألني بصوته القاصف:

– هل لك في شيء من لحم البقر البارد؟

ولعله كان رجلاً رقيق القلب في باطنه، ولكنه، مثل كثيرين ممن يخجلون من طيبة نفوسهم؛ مغرم بالتظاهر بالخشونة والفظاظة، وله شارب ضخم معقوف على طريقة الإمبراطور النمساوي، وكان الرجل ممن حضروا عهد الاحتلال النمساوي لشمال إيطاليا والبندقية، وقد اكتشفت بعد قليل أنه يتحدث بالألمانية بصورة مقبولة، لا يصيبها إلا اعتقاده الخاطئ بأن اللهجة الألمانية المثلى هي لهجة الضباط المتطوعين من أهل دلماشيا؛ وهي لهجة متراخية قريبة من الغنة الإيطالية، فلما تكلمت معه الألمانية بنطقها السريع الحاسم، نال منه الأسى مناله وأبدى تحسره على ما أصاب اللغة الألمانية من اضمحلال بعد أن ترك خدمة الجيش.

وخطر لي من كثرة تقطيبه وزمجرته، أنه ليس من المستبعد أن يكون صاحبي مصابًا بعسر هضم مزمن!

ونهض الرجل من وراء الحاجز الخشبي، وكأنه خيال ينهض عن صهوة جواده، ويعوق سيره وجود المهمازين في حذائه الطويل، ثم أخذ يصيح كأنه وحش متعطش للدماء في أنحاء الخان، ونزل بخطوات أشبه بالقفز إلى فناء صغير فيه موائد صغيرة عليها مفارش قذرة، وعصر يدي بطريقة خبيثة كأنه يريد أن يسمعني أصرخ من شدة قبضته، ثم دعاني للجلوس بإشارة واسعة من ذراعه إلى إحدى الموائد، واتخذ هو مجلسه بحيث تفصلني عنه ثلاث موائد، ولكن صوته المرتفع كان يكفي لاستماع مَن يبعدون عنه ثلاثين مائدة!، وأتوا إلى مائدتي بكوب من الجعة وشيء من اللحم البارد.

وهذا الفناء الصغير كان هو قاعة المائدة في الخان، ويبدو أن النزلاء الآخرين – إن كان هناك آخرون – قد انتهوا من تناول طعامهم، ولعلهم الآن يتنزهون في صمت في تلك الميادين الصغيرة، فلم يكن معي سوى رجل مسن رث الهيئة يجلس في ركن ناءٍ، حريصًا على إبداء الموافقة والتأمين على كل كلمة تصدر من فم صاحب الخان الذي كان يسأله دائمًا عن رأيه فيما يقول.

وأقبلت على قطعة اللحم البارد أقطعها بالسكين شرائح، ثم لاحظت اختفاء القطع ثم ظهورها مرتين، فخطر لي أنني ربما كنت أغفو وأنا آكل، ثم انتهى الأمر بأجفاني إلى تشبث بعضها ببعض.

وفجأة، كما يحدث في الأحلام وفي قصص الأطفال الخرافية، ظهرت امرأة طيبة عجوز بجوار مائدتي، وسمعت مضيفي يفضي إليها بإيجاز أنه شملني برعايته وإحسانه، وهي رعاية خيّرة رغم مظهرها المتوحش، ونهضت

عن المائدة، وتبعتها في سلم ضيق في مكان ما من الخان إلى أن وجدت نفسي وحيدًا، فتحسست في الظلام موضع الفراش، ومن غير تفكير خلعت ثيابي ثم انطرحت فوقه.

واستيقظت لأجد ضياء الشمس يفترش الحجرة، وقد قضيت عشر ساعات في نوم عميق متواصل. وللمرة الأولى وعيت وعيًا كاملاً أن ما كنت أخاله مستحيلاً قد تحقق، فهأنذا أخيرة في البندقية، وهذه الشمس الدافئة القوية التي تنصب من سماء صافية، هي أقطع دليل على تحقق المستحيل.

ووجدتنى تواقًا للنهوض على الفور، كي أنزل إلى المدينة المسحورة، وأملأ عيني من أعاجيبها. وبدأت أتلفت لأتأمل الحجرة التي أرقد فيها، فرأيت مسامير كثيرة في الجدران وقد علقت فيها قمصان وأثواب منزلية نسائية ومنفضة ومهفة من الريش، أما حوافي النوافذ، فكدست فوقها علب من الصفيح فيها الدهون والسمن، وصندوق من الطباشير!

وخلف ستار كبير، يقسم هذا المخزن قسمين، ترامى إلى سمعي صوت صنبور الماء ثم صوت فرشاة أحذية كان النصف الآخر من المخزن هو المكان الذي يجري فيه تنظيف وتلميع أحذية سائر نزلاء الخان، ومع هذه الأصوات ارتفع صوت طفل يناغي، وامرأة تحثه على الصمت، وعرفت من صوت المرأة أنها تلك العجوز التي قادتني إلى فراشي في الليل.

وهذه العجوز اتضح لي أنها تمُت بصلة قرابة بعيدة إلى رب الخان، وتقوم لديه بعمل المديرة، وقد خصص لي حجرتها الصغيرة، فأثارني هذا

وطالبت بتغيير النظام حتى لا أحرمها من فراشها، ولكن العجوز طلبت مني في ضيق إلا أتدخل في شؤون الأسرة الخاصة.

وقبل أن أرتدي ثيابي، تمطيت وأخذت أنظر فيما حولي مرة أخرى. وفجأة أشرق على ذهني ضوء كان قد خمد بتأثير الإرهاق الشديد بالأمس، وعلى الفور أدركت ما فاتني من أمر ذلك الساقي الذي تطوع للطواف بي ذهابًا وإيابًا في البندقية بين الأزقة المظلمة، بحثًا عن هذا المسكن الرخيص، أنه بعينه كبير السقاة في مشرب ماربورغ الذي شارك في وضع الميزانية، وحثني على السفر تلك الليلة بغير تردد، وكنت أظنني لن أراه بعدها.

وهذا هو سر ما أحسسته من ألفة بيني وبين هذا الرجل الغريب، بحيث اخترت التوجه إليه بسؤالي من بين عشرات الغرباء.

ولم يدهشني هذا الاكتشاف، ولم أجد فيه أدنى دليل على الإعجاز؛ وإنما هي مصادفات الحياة، وما يترسب في النفس من إحساس غامض بالأشخاص حتى ولو لم يتعرف عليهم عقلنا الواعي لأول وهلة، فإن هناك طبقات من الشعور ومن المعرفة الحسية على هامش عقلنا الواعي، ولكن أثرها في توجيه أفعالنا ليس أقل بحال من الأحوال من أثر العقل الواعي نفسه.

ومن حيث سار الإنسان، لابد أن ينتهي الشارع الذي يسير فيه إلى ساحة، وكل ساحة يختلف المنظر فيها عن الساحات الأخرى؛ ففي هذه الساحة مكتب البرق، وفي تلك الساحة الكاتدرائية الكبرى. وفي ساعة ثالثة قصر الدوج، وفي رابعة المتحف المثلث الجوانب.

وشيئًا فشيئًا، يألف الإنسان هذه المشاهد والأبنية، ويشعر بارتباط وثيق بينه وبينها، وينتهي الأمر بتسرب إحساس غريب إلى النفس، مفاده أن البندقية مدينة مأهولة بالأبنية لا بالناس؛ أبنية من طراز القصور التي أشرت إليها الآن، وبضعة أخرى من الأبنية.

وليس في هذا الشعور شيء من المجاز، فإن اللغة التي يتحدث بها المعماريون، وعباراتها من الصخر والرخام، لغة لا تباريها في بلاغتها أعظم أساليب الألفاظ.

وأضفى التاريخ وإعجاب المسافرين والسائحين على تلك القصور العتيقة، هالة من الإعجاب جعلت لها شخصيات حية، بصرف النظر عن خلاء تلك القصور من السكان، فلم يترك التاريخ وجمال العمارة فراغًا يلحظه المرء في تلك المنازل التي أقفرت منذ زمن بعيد. كل شيء هنا حافل بالجمال معمور بالفن، فلا تحس وحشة في الديار ولو لم يكن فيها ديار..

وما أكثر ما يشاهد الإنجليز قبل نزولهم إلى الجندول الذي سينقلهم من الفندق إلى المحطة، وهم يتلكئون للمرة الأخيرة فوق أرض الساحة في هيئة من يقفون للتوديع إزاء شخص حي. وهم يملئون عيونهم الطافحة بالوجد من تلك العمائر العتيقة التي تنبض حجارتها بحياة لا مثيل لها في أبنية أية مدينة أخرى، وتكاد تترقرق الدموع من عيونهم، فيشبهون رحالة من شعراء البدو، وقفوا يستودعون آثار مساكن حبيباتهم التي تحمل في نظرهم حياة فريدة من نوعها عزيزة عليهم.

ولكن الإنسان في البندقية لا يحب الدار حبًا لساكنيها الراحلين؛ فهو

لا يعرفهم، ولكنه يتعلق بالدار لأنها الدار، وبالبناء لأنه بناء. وبناء له حياة، حياة أقوى وأحيا من كل الإنس الذين شادوها أو عاشوا فيها.

وإني لأغبط الإنجليز من زوار البندقية خاصة. فمن المعروف أنه ما من ثقافة استطاعت أن تقترب من لُباب الثقافة الإيطالية، مثلما اقتربت منها الثقافة الإنجليزية.

وتحت أقدام الميدان الكبير المطل على البحر، غابة من صواري السفن، لم تزل تذكر المتأمل بذلك الأسطول الذي كان للبندقية، وكأن هذه الغابة منظر متمم لتصميم المدينة الأصلي. ومنذ أربعة قرون، كان أسطول البندقية أقوى أسطول في زمنه، وكانت ضخامته موضع الدهشة والإعجاب، ويكفي أن نعلم أنه في القرن الخامس عشر، كان عدد سفن البندقية التجارية – بخلاف أسطولها الحربي الضخم – يزيد على ثلاثة آلاف وخمسمائة سفينة، تضم أكثر من سبعين ألف من البحارة والصناع المهرة.

وهذا الأسطول العجيب هو الحقيقة التاريخية التي قامت عليها سطوة جمهورية البندقية الصغيرة الحجم، وهي سطوة تحسب ولاشك في عداد الأساطير.. إن حمولة تلك السفن التجارية الجبارة كانت هي الأثاث الثابت كالصخر الذي شيدت فوقه حضارة البندقية وبذخها ورفاهيتها.

وكان هذا المنظر يستهويني، وأقف بإزائه طويلاً، ولا يقل في تأثيره على نفسي بإيحاءاته التاريخية عن تأثير الروائع الفنية التي تركها أشهر رسامي العالم.

وطويلاً أيضًا كنت أقف أمام أعمال تيتيان وفيرونيزي، ويستولي علي العجب لذلك الاندماج الفذ بين موضوع الرسم وبين أسلوب الرسام وأحساسيه في عمل واحد باق؛ عمل واحد لا يمكن التمييز فيه بين العناصر الثلاثة.

وبعد أن طفت بالمدن الإيطالية الأخرى، ولاسيما فلورنسا، استولى على إحساس قوي بالوحدة العامة بين سائر أشكال الفنون في الثقافة الواحدة؛ فصورة القيامة كما أبدعتها لوحات الفنانين في عصر النهضة، أو عصر البعث الأوروبي، قد يكون موضوعها دينيًا، ولكن الإحساس الذي تعبر عنه هو الإحساس الأوروبى العام ببعث الفنون الكلاسيكية والفلسفة الإغريقية؛ وأما الصور الدينية الأخرى التي تمثل عرس قانا الجليل، والصعود، والعشاء الأخير، فإن الإحساس الذي تعبر عنه هو الإحساس بالفخامة والرواء في الحياة الاجتماعية لعصر النهضة لا لبيئة السيد المسيح.

من هذه الرحلة أدركت أن الفنان، مهما كان الموضوع الذي يعالجه، إنما يعبر عن إحساسه هو وعصره وأحلامه. وهذا التعبير هو الفارق الجوهري بين الفن وبين الصنعة، وهو القيمة الاساسية للعمل الفني.

وقد علمتني هذه الروائع الإيطالية أن التوراة ليست كتابًا جامدًا ونصوصًا متحجرة، وإنما هو سجل البشرية الذي حوى بذور طبيعتنا الخالدة. وأننا كلما تصورنا موضوعات هذا الكتاب، إنما نعبر في الحقيقة من خلال تلك الموضوعات عن حياتنا نحن وإحساسنا وقيمنا المعاصرة؛

فهو أقرب إلى طبيعة المرأة التي ليست شيئًا معينًا، وإنما هي قابلة لصورة كل مَن يتطلع فيها.

وفي الأمسية السابقة على رحيلي من البندقية، أقيم مهرجان موسيقي حفلت فيه الساحة بالأنوار. ومن المعتاد إقامة مثل هذا المهرجان الموسيقي هناك بين حين وحين، وفي تلك المناسبة، تبدو واجهات الأبنية المُطلة على الساحة وقد اتشحت بمئزرٍ من المصابيح الدقيقة من قمتها إلى أساسها. وتحت السماء الصافية، كانت الأضواء تنعكس على وجوه المشاهدين في وضاءة شبيهة بوضاءة الخارجين من حمامات البخار!

وكان يخيل إلى أن هذا المسرح المكشوف، إنما هو في الواقع قاعة احتفال ضخمة زينت لتحاكي ساحة في العراء، ووزعت الأضواء فيها توزيعًا متقنًا لتوحي بهذا الوهم. وعلى حين غرة، أخذ سقف هذه القاعة الوهمية يسّاقط على الناس رذاذًا خفيفاً، بيد أن المطر ما أن بدأ حتى انقطع فجأة، وكأنه كان وسيلة صناعية لتحليل النور إلى عناصره المختلفة بقطرات ذلك الماء، فعشنا للمحة يسيرة تحت قوس هائل سائل، يملأ علينا الهواء.

وكان برج الناقوس في كنيسة القديس مرقص يخترق برخامه الأحمر الضباب الوردي الذي بدأ يتجمع حول قمته العالية، كأنه هالة باهرة تحيط بدائرة القمر. وكان هذا الجانب من الساحة يبدو من بعد، وكأنه جزء من عالم مسحور رآه نائم في أعماق مملكة البحر..

ولما انتهى المهرجان الموسيقي، وضحت للأذن أصوات الطاحون المائي الضخم الذي كان دائرة طيلة الوقت، ولكن الموسيقى أغرقته بأنغامها.

وتجمع الناس زُرافات يتنزهون في أرجاء الساحة، والنساء تمر من بينهم مسرعات، وعلى سحنتهن أمارات الغضب والوعيد أكثر مما على زينتهن من أمارات الإغراء، ولكن ما في مشيتهن من التأرجح، وما يقترن بقطوبهن من تلفت إلى الوراء يحمل معنى الاستدراج ومعنى التحذير في آن واحد، ويضيف شيئًا من الطعم الخاص لهواء الساحة المحمّل بآثار عطور الحدائق ورائحة البحر.

وقد حاولت مرتين محاولة دائبة، أن أعبر بالشعر عن الإحساس الذي حفرته في نفسي إلى الأبد تلك الأيام التي قضيتها في البندقية.

وفي الليلة السابقة لرحيلي عنها، استيقظت من نومي في ذلك الخان، على صوت أغنية معزوفة على القيثار، ولكن الأغنية انقطعت فجأة بمجرد يقظتي.

وأسرعت إلى النافذة، فلم أرَ إلا الماء في القناة يضرب جدران البناء، فرميت ببصري إلى السماء الحالكة، كأني أتوقع أن أرى أثرًا من آثار تلك الأنغام ظل عالقًا بها.. ولو رآني في تلك الساعة إنسان وتبين نظرتي، لحسبني أنظر لأرى هل ظهرت مجموعة شمسية جديدة في سماء البندقية؟!

القسم الثالث

وَهْج الظَّهيرة

موسكو في الشتاء تتقسمها الشوارع الواسعة طولاً وعرضًا، ومن وراء كل قسم ستار مزدوج من الأشجار العالية التي تحف بجانبي تلك الشوارع؛ وهي أشجار موحشة لا تخلو وحشتها من جلال جميل، وقد أسود لونها من أثر الشتاء الذي جردها من خضرتها، ثم توج أعاليها بأكاليل من الثلج الأبيض.

وفي داخل البيوت، كانت النيران تتوهج صفراء اللون، كأنها ليمونات صفراء كبيرة مقطعة في دوائر وحلقات. والسماء المثقلة بالجليد تبدو قريبة من سطح الأرض ومن قمم الأشجار والدور، فكل شيء حولنا أما متسربل بالبياض أو ضارب للزرقة.

وفي تلك الشوارع المتقاطعة التي تتقسم موسكو، يتسكع في ذلك الأوان من العام شبّان عليهم ثياب زرية، يسيرون منكسي الرؤوس كأنهم يهتمون بالنطاح!

وانعقدت المعرفة بيني وبين فريق من هؤلاء الشبان، أما الغالبية منهم فلم أتعرف بهم؛ ولكنهم جميعًا كانوا في مثل سني، فهم من هذا الوجه نسخ لا عدد لها من صباي.

إنهم شباب متطلع إلى الحياة، إلى الحياة التي بدأت تفتح أعينهم على كلمات لا تدرك الطفولة معناها، مثل الملكية، والاستغلال، والتمتع، وهم في لهفة شديدة على دخول هذا العالم الجديد.

وهؤلاء الشبان المتمردون، يوجد نظيرهم دائمًا في كل جيل وبهم وحدهم يتجدد شباب البشرية، لأن طريق البشرية المطروق معروف مقدمًا. ولولا هذه الاتجاهات الجانبية، لما عرفت البشرية طريقًا آخر تصرف فيه انفعالاتها وتتجنب به الإحساس بالفناء المحتوم الذي ينتظر الأفراد جميعًا، وينتظر في المدى الطويل نوعهم كله.

طريق واحد كبير، ينتهي إليه كل فرد مهما شق لنفسه مسالك جانبية، ولكن السير فيه بدون حياد عنه يورث الجنون، أو يورث التعفن للنوع البشري بأكمله!

هؤلاء الفتيان الذين عرفتهم في موسكو لذلك العهد، كانوا هم الطليعة المجددة من الفنانين الثوريين.

ولكن أي نوع من الفن نفهم هذا؟

إنه الفن الناشئ؛ الفن الجديد الذي أعلامه سكريا بين وبلوك، وكوميسارزنسكي، وبيلي.

ولكن ما هي أزمة ذلك الجيل التي نجمت عنها هذه المدرسة الفنية الجديدة؟

إن من ولدوا معي كانوا في الثالثة عشرة – سن المراهقة – في سنة

١٩٠٥، وهو عام حرب الشرق الأقصى مع اليابان التي انتهت بهزيمة منكرة لروسيا. وهؤلاء أنفسهم صاروا في الثانية والعشرين قبل اندلاع الحرب العالمية الأولى مباشرة، وهذان هما التاريخان الداميان في حياة وطننا لهذا القرن.

المراهقة والشباب اقترنا في حياة جيلنا المتمرد هذا، بمرحلتي تحول تاريخيتين حاسمتين لوطننا ومجتمعنا، فتسربت أزمة مجتمعنا إلى أعصاب أولئك الفتيان، وجرت في عروقهم مع الدماء.

وعندما عُدت من رحلتي في الخارج سنة١٩١٢ كانت روسيا تحتفل بالذكرى المئوية لغزوة الإمبراطور نابليون التي حدثت سنة١٨١٢، وافتتح الخط الحديدي المفضي إلى بريستيك وسمى خط الاسكندر – القيصر الكبير، وأعيد طلاء محطات السكك الحديدية جميعًا بالبياض لتلك المناسبة. واكتسى قارعو النواقيس على أرصفة المحطات قمصانًا جديدة نظيفة، أما محطة كوبنكا فاكتظت بالرايات والأعلام الوطنية ووقف على أبوابها حراس مدجّجون بالسلاح، فبالقرب من هذا الموضع يجري عرض عسكري كبير سيحضر لمشاهدته كبار رجال الدولة، ولهذا السبب كانت المحطة مفروشة برمل أبيض ناعم.

ولكن هذه الزينات كلها، لم تستشر في المسافرين والمارة الاحساس بالذكرى المحتفى بها. وكان المهرجان في مجموعه يحمل طابع ذلك العهد كله، وهو طابع عدم المبالاة بالتاريخ القومي أو الشعبي؛ فالتاريخ هو تاريخ الدولة ليس إلا.

وإذا كان لذلك المهرجان أثر كبير، فذلك الأثر لم يكن في أفكار الناس وإحساسه، بل في خط سير القطارات، فقد وقف قطاري لهذا السبب في محطات لم يكن ليقف بها، ووقف في بعضها أطول مما ينبغي. وما أكثر الإشارات التي أوقفته وسط الحقول ساعات طويلة.

وتذكرت وأنا أتململ فوق مقعدي بالقطار المتسكع ما كان مني ومن لداتي في سنة ١٩٠٥ على أثر اندلاع المظاهرات احتجاجًا على هزيمة الأسطول أمام اليابان، بسبب سوء التدبير السياسي والعسكري. وكيف كنت غلامًا تنحصر ثوريته الهنية في تحدي سياط القوازق الذين يفرقون المظاهرات. وكان التحدي لا يكلفني كثيرًا، وأنا أرتدي معطفًا مبطنًا من الداخل بالشعر والفراء!

وتذكرت أيضًا صديقًا كبيرًا لأسرتي مات في العام السابق هو الفنان الرسام سيروف، الذي كان يقوم في حفلات الاستقبال التي يدعو إليها آل يوسوبوف برسم الأسرة المالكة رسمًا كاريكاتوريا مضحكًا للغاية، على سبيل التوضيح لحفلات الصيد القيصرية التي تحفل بها وبأوصافها الصحف المتملقة.

وأيقنت أن هذه الحفلات والاستعراضات والحراس، إنما هي إرهاصات بمأساة جديدة ستنزل بوطننا.

وما إن وصلت إلى موسكو، حتى انعقدت الأواصر بيني وبين أولئك الشبان المتمردين، طلائع مدرسة جديدة في الفن والفلسفة، هي التعبير القوي عن أزمة مجتمعنا الروسي.

كان من عرفتهم من هذا الجيل الصاعد من الفنانين، لا يهتمون بالسياسة في كثير أو قليل؛ ولكن مَن عرفتهم – كما قلت آنفًا– لم يكونوا إلا قلة من ذلك الجيل المتمرد، فقد اتضح من تيار الحوادث فيما بعد، أن معظم اتجاه ذلك الجيل كان سياسيًا، وأنهم كانوا اللولب الذي دارت حوله عملية الثورة.

ومن الطبيعي أن جيل المتمردين، لا يمكن أن ينتمي إلى مذهب واحد أو اتجاه واحد، لأن أساس التمرد هو الخروج على الرأي الشائع والاتجاه المشترك؛ بل كانت كل جماعة صغيرة تأنس فيما بين أفرادها تآلفًا أو تقاربًا في المزاج الفني أو النفسي، تنطوي على نفسها ويجتمع أفرادها معًا.

وكانت معرفتي بهؤلاء في داخل ذلك النطاق الذي يوحي بالهوى والتعصب والانحياز المألوف في مثل تلك المجموعات الشابة.

وقبل ذلك بمدة، كان آنيسيموف قد أطلعني على قصائد، كما يطلع الشاعر شاعرًا آخر على أعماله، وكان ذلك في ندوة أطلق أعضاؤها عليها اسم ندوة الشاعرية، وفي هذه الندوة اكتشفنا الفنان مایاکوفسكي، ووجدنا فيه ظاهرة تبشر بمستقبل كبير ضخم.

وفي صيف سنة ١٩١٤ ترددت على مجموعة أخرى هي مجموعة، يطلق أعضاؤها على أنفسهم اسم المجددين. وفي هذه الجمعية الجديدة، اكتشفت أن شرشينيفتش وبولشاكوف وما ياكوفسكي أعداء لنا في الرأي، وأن خصومة بعيدة كل البعد عن روح الخلاف الودي أو المزاح تتأزم حلقاتها يومًا بعد يوم. وأفزعني هذا جدًا؛ لأني لم أكن أتصوّر أن ينشب

شجار أو ملاحاة بيني وبين رجل استحوذ في يوم من الأيام على إعجابي بعمله الفني الجميل، وكنت أتتبع إنتاجه عن بُعد، فيزيد انجذابي إليه وإكباري لشأنه.

وكنت قد قضيت كل ذلك الشتاء في دوامة تلك الجمعية الفنية الجديدة، ولم أفعل شيئًا سوى الاشتراك في مناقشاتها التأسيسية حتى تنبهت إلى أنني أنزلق بذلك إلى عصبية حزبية تدمغني بميسمها وتصبني في قالبها، فعزمت على أن أتجنب مثل تلك الخاتمة الوخيمة التي تحتم على التضحية بالذوق وأمانة الضمير في سبيل التعصب لمدرسة مذهبية معينة.

عولت بيني وبين نفسي مرارًا وتكرارًا على خلع تلك الآراء عندما يحتاج الأمر إلى هذا. وفي ذات يوم حار من أواخر شهر مايو، كنت جالسًا مع أصحابي في مشرب من مشارب الشاي على شاطئ الأربات عندما دخل الثلاثة المذكورون آنفًا في صخب وضجة، وأعطوا قبعاتهم للخادم، واتجهوا نحونا في وقار وتعالٍ من غير أن يخفضوا أصواتهم العالية التي كانت تضيع وسط ضجة الترام وهم في الشارع؛ أما في داخل المشرب فهي ترن وتدوي!

وكانت أصواتهم جميلة، وثيابهم أنيقة، في حين كانت ثيابنا نحن أبعد ما تكون عن الأناقة، فكان موقفهم وهم ينشدون أشعارهم على طريقتهم التقليدية الغنائية، أفضل بكثير في نظر الناس من موقفنا.

وبدأ بوبروف يتناقش بحدة مع شرشينيفتش، وكان محور المناقشة أن هذه ليست أول مرة يحتكون فيها بنا، فنضطر للرد عليهم ردًا عنيفًا، وأن هذا السلوك ينبغي أن يقف عند حد.

أما أنا فجلست أرمق بإمعان ماياكوفسكي ولا أحوّل نظري عنه، وأظن أن هذه كانت أول مرة أرقبه فيها عن كثب، وتبين لي أن طريقته الغريبة في نطق الألف، طريقة مصطنعة يتخذها عمدًا، وأن مظهره الجاف نوع من التمثيل المقصود ولم يكن هو وحيد عصره في هذا التظاهر، فصديقاه كل منهما له طريقته المظهرية في الإيهام، والثلاثة يعمدون إلى الأناقة المفرطة. ولكن هذا لم يقلل في نظري من امتياز ماياكوفسكي الواضح على صاحبيه، مع أن أحدهما شاعر مثله؛ بل إن هذا التشابه في المظهريات بين الثلاثة ساعد على امتيازه على صاحبيه وأنا أنظر إليه وهما بجانبيه.

إنه ممثل عظيم مطبوع، ولكنه يزدري تمثيل دور على خشبة مسرح، ولا يقنع بأقل من تمثيل الأدوار جميعًا على مسرح الحياة، وهذا هو سر جاذبيته وسيطرته بشخصيته على جميع الناس.

إن الإنسان يستطيع أن يرى أي امرئ في كامل طوله حين يمشي أو يقف؛ أما ماياكوفسكي فكان مشيه أو نهوضه واقفًا يبدو للناظر عملاً معجزًا يسترعي النظر، فتتجه إليه الأبصار من جميع الأقطار، لقد وهبته الطبيعة مزية فريدة، تجعل كل ما هو مألوف لدى الناس يبدو لديه خارقًا للمألوف.

ولم يكن السبب في هذا راجعًا إلى طوله المفرط إذا قيس بالمتر؛ بل إلى خاصية فيه لا تبدو للحواس لأول وهلة، ويقصر عن إدراكها المقياس، وهذه الخاصة أن كيانه كله وعناصره تبدو بأجمعها في مظهره. فمظهره

يفيض بطاقة تعبيرية ضخمة عن حقيقة شخصيته، في حين أن الغالبية العظمى من الناس لا يعبر مظهرهم عن مخبرهم إلا في ظروف نادرة جدًا من حياتهم، وبهذا ينبعث من مظهر ماياكوفسكي تأثير مغناطيسي، يجذب ويبهر في آن واحد.

وكانت طريقة جلوسه على المقعد، كأنه يجلس على مقعد دراجة بخارية، فيميل بقامته إلى الأمام، ويقطع الكعك ويأكله بحركات سريعة في التناول والبلع، ويحرك عينيه في كل اتجاه من غير أن يحرك رأسه. وحين يمشي في الشارع يمشي بوقار ملكي، وحين يتكلم يخرج صوته رنانًا من فمه وأنفه معًا، ويعرف كيف يقطب في مهابة فيبدو ما يسخط عليه مستنكرًا، وتفيض من عزيمته موجة من الإيحاء تسيطر على من يحدثه؛ فعبقريته لها ارتباط شديد بعزمه وإرادته، وقد جعل من نفسه في كل حركاته تجسيدًا لإحساسه بعبقريته تلك، كي يفرضها بكل قوة.

ولكنه لم يزل شابًا صغير السن يستعجل المجد والنصر، ويريد أن يستمرئ اليوم ما هو رهن بطوايا المستقبل، وهذا الاستمراء المجيد لا يمكن أن يتاح له سلفًا عن طريق الناس، فهو يتيحه لنفسه عن طريق ذاته؛ عن طريق التمثيل والتظاهر بالوقار والرزانة والترفع، ويستخدم هذا مع جميع الناس حتى أصدقاءه وأقاربه.

ولكن إلى جانب ما يظهره من الافتقار إلى الحياء، كان في أعماقه يعاني من حياء مفرط، وتحت مظهر حريته المزعومة، إحساس شديد بالافتقار إلى الحرية، يتجه به إلى الوجوم والحزن الذي لا هدف له، وكذلك مظهره

الفكري الذي يدل على عدائه للطبقة الوسطى، إنما يخفي تحته صراعًا مع موهبته ونبوغه. ذلك النبوغ الذي يقلق نفسه في سن مبكرة جدًا.

وفجأة انتهى ذلك اللقاء النزالي في مشرب الشاي، وانصرف الثلاثة المتأنطون الذين كنا نستطيع أن نقضي عليهم، وهم في أعين الناس منتصرون، وكانت بنود الهدنة التي عقدناها مع الجانب الآخر مهينة في الظاهر، لنا وللمجموعة التي نمثلها.

وكان الظلام قد بدأ يسود في الخارج، والرذاذ أخذ ينهمر. وأحسسنا بعد انصراف خصومنا أن المشرب أصبح خاليًا خلاء موحشًا للنفس، وبدأنا نشعر بطنين الذباب الذي كان موجودًا طول الوقت وأمامنا قطع الكعك التي لم تؤكل والأكواب الملطخة بآثار اللبن الساخن.

ومع ذلك كانت الشمس في الخارج ترسل آخر أشعتها، بعد أن انكسرت حدة حر النهار. كنا في مايو سنة ١٩١٤ والأحداث التاريخية يوشك فجرها أن يطلع، ولكن مَن ذا الذي كان يفكر في ذلك. إن الخضرة التي اكتست بها الأشجار العالية والأزهار المتعددة الألوان، كانت كل ما يشغل الناس. وكنت أنا مشغولاً بماياكوفسكي، أحن إلى صحبته.

ومع هذا كله، لم أجد في نفسي العزم الكافي على فصم علاقتي بالمجموعة التي أنتمي إليها على مضض.

والتقينا في اليوم التالي، بمحض المصادفة، تحت عريشة المقهى اليوناني، ومن أمامنا تنبسط شريحة من الحدائق الواقعة بين شارع بوشكين وشارع نيكتين، وفوق العشب استلقت مجموعات من الكلاب، وقد تدلت

ألسنتها الطويلة في الشمس، وبين الحين والحين تتثاءب وتقلب رأسها فوق وسادة قائمتيها الأماميتين، والمربيات العجائز يتركن الأطفال في العربات ليتحدثن إلى العوانس، صاحبات الكلاب، أحاديث هامسة، ووميض عيونهن يفضح موضوعات الهمس، وما تدور حوله من تشنيع أو إقذاع أو فضائح يندى لها الجبين عن هذه أو تلك.

وكانت الفراشات تضم أجنحتها من شدة الحرارة، وتختفي ثم تبسط تلك الأجنحة المزركشة فجأة، وتسبح فوق موجات الضوء الشديد إلى موضع آخر، وهناك فتاة صغيرة ترتدي ثوبًا أبيض تنط الحبل في مهارة، وهي تعد دورات الحبل بصوت عالٍ ممراح.

ورأيت عن بعد ماياكوفسكي، فدللت عليه بإصبعي جليسي لوكس، وكان يلعب إحدى لعبات الحظ مع خودازفيتش، وفي هذه اللحظة بالذات، نهض خودازفيتش واقفًا ودفع خسارته وغادر العريشة وترك ماياكوفسكي بمفرده على المائدة؛ فأقبلنا نحوه وحييناه، وبدأنا نجاذبه أطراف الحديث، وبعد قليل اقترح أن يتلو علينا مقطوعة أو مقطوعتين من أشعاره.

وكانت أشجار الصفصاف في أوْج خضرتها الزاهية، وأشجار الليمون تزهو بلونها الأشهب.. والكلاب في الخميلة أخذت تضيق ذرعًا بالطير والحشرات، فنهضت رابضة على قوائمها، ورفعت عقائرها بالنباح، كأنها تستشهد السماء على هذا الظلم، وتستنزل سخطها عقابًا على ما فاضت به الأرض من جور وفساد، فلم يعد هناك موضع ينعم فيه كلب وادع

بطمأنينة النوم الأمن وهو مسالم، ومن شارِع الإسكندر أخذت آلات التبليط تطلق صفاراتها لإخلاء الطريق، والناس جميعًا من حولنا. هذا يقص شعره، وذاك يحلق لحيته وثالث يخبز أو يقلي أو يبيع، كلهم يتحركون مشغولين بأمور معاشهم أو لهوهم، ولا يرون شيئًا.

وقرأ ماياكوفسكي علينا مأساته المنظومة التي فرغ منها أخيرًا وكنت أصغى لما يقرأ مأخوذة من كل قلبي، وأنا أكتم أنفاسي وقد نسيت كل ما حولي؛ فالحقيقة أني لم أسمع في حياتي شيئًا يضارعها من قبل.

كانت القصيدة الجميلة حاملة كل شيء. كانت تطوي في مضمونها حديقة الطريق والكلاب وأشجار الليمون والفراش والحلاقين والخبازين والخياطين والآلات ذات الصفير والهدير. كانت موسيقاها الداخلية تستوعب حياة الناس وحركتهم جميعًا، وتفيض بحرارة ذلك الصيف الغامض.

وقد قدر لهذه القصيدة، أن تصبح من مشهورات الشعر بعد طباعتها، ولم تقل طبعاتها حتى اليوم عن عشرين طبعة، وأصبحت من محفوظات الشبان من المتأدبين والطلاب.

كان كل شيء في تلك القصيدة – على تنوع عناصره – يبدو مؤتلفًا فريدًا في بساطة واتساق، وكان ماياكوفسكي على حق في تسمية القصيدة مأساة؛ لأن مأساة الحياة هي فعلاً في ذلك الاختلاف الشديد الذي تختفي وحدته عن أبصارنا، وإن أحست بها بصائرنا حين نرزق فطانة الفنان.

وعندما اندلعت الحرب؛ اندلعت البروق في آفاق الجو أيضًا. وبدأ

المطر ينهمر، وانهمرت أيضًا الدمعة الأولى من دموع النساء، وكانت الحرب في بدايتها لم تزل شيئًا جديدًا على الناس؛ شيئًا فظيعًا مروعًا في جدته، لا يدري أحد كيف يعالجه، فحال الناس معه كحال من يفكر في خوض ماء مثلوج لأول مرة بعد ذوبان الجليد.

وقطارات الركاب جعلت تحمل أبناء كل منطقة إلى مراكز التجنيد، وفي المواعيد المعتادة المعمول بها قبل الحرب، فلم يتغير في القطارات شيء سوى صفيرها؛ إذ كان القطار يبدأ المسير وهو يطلق موجات متعاقبة من الصفير الحاد، يحاكي بها الصراخ والعويل. وفي كل محطة يركب مجندون جُدد، وتقف جماعات النساء ليبكين الأعزاء الذاهبين، وهنا وهناك تقف جدة عجوز تتحسس شالها ودثارها في ذهول؛ لأنها موقنة أن دفء الصيف قد يفارق جسمها الواهن فراقًا أبديًا ولا تجد السبيل إلى ضماته.

ولم تستمر هذه الآلام والتفجعات إلا شهورًا قليلة في بداية الحرب؛ ولكن ذلك التفجع كان شيئًا أعمق وأعم من حزن أفراد من الزوجات الشابات أو الأمهات. كانت فجيعة شارك فيها صفير القطار وأسى السائق، والرقة غير المعهودة التي هبطت فجأة على عمال المحطات، فلا يضيقون بتلك الجموع الباكية، بل يرفعون لها القبعات ويفسحون لها الطريق؛ لأنهم يحسون أن زهرة شباب روسيا مقضي عليها أن تتمزق عبثًا في سبيل قضية خاسرة وفي معركة لا معنى لها.

كان التفجع يلازم وداع المجندين الذين يركبون القطارات بثياب مدنية، ليدخلوا المعسكرات للتدريب برهة قصيرة، ثم يسيرون منها إلى خط

القتال، أما صفوف الجنود الذين تم تدريبهم، فقد كان منظرهم حين يمرون بالناس على تعبئة ونظام ووجهتهم وادي ظل الموت في أتون المعركة؛ لا يثير في الناس لوعة، أو يستدر منهم دمعة، بل كان المارة من رجال ونساء يقفون للنظر إليهم، وليس على وجوههم تعبير معين. وكان أولئك الجنود يقفزون من القطارات أو إليها في دربة ورشاقة، لا تشبه في شيء حركات الفلاحين المتخبطة التي خطوا بها قبل أسابيع إلى قطار التجنيد، ولم يفكر أحد في المحطات التي يمر بها الجنود المدربون ووجهتهم خط القتال، أن يقدم إليهم الزهور أو الفاكهة، كما كانوا يفعلون بهم وهم مساقون إلى معسكر التدريب، كأنما الكسوة العسكرية قد جعلت منهم أمة أخرى!

وكان شهر سبتمبر يتهادى نحو ختامه، وعلى ضفة النهر شجرة بندق عتيقة تحمل آثار الحريق منحنية فوق الماء مقوضة الأركان، من فعل الريح، ومن كثرة الأقدام التي تسلقتها في طلب الثمار، وهي مفردة متداعية منهكة القوى، تبدو عند مجرى الماء صورة للوحشة واليأس والعجز أمام عاديات الزمن؛ ولكنها مع ذلك لم تزل قائمة بسر خفي فيها، ولم تزل عصارة الحياة تدب دبيبها الغامض في داخلها. وفي غصن صغير متطرف، أوراق خضراء تنبثق متطلعة إلى غد؛ غد تنكره بقية تلك الشجرة العجوز.

وذات يوم من أيام أغسطس، نظرت إلى الأرض، فإذا كل شيء مخضرًا بخضرة يعلوها الرماد، والطيور والعصافير قد سكن صوتها، فسادَ سكونٌ كسكون الفناء، وكان قاسيًا أن يرى الإنسان الفناء مسيطرًا على أرض لم تزل حافلة بالاخضرار قادرة على الإزهار.

ولما أقبل الشتاء اتخذت س.. وهي إحدى شقيقات مهتمات بالأدب والفن، مسكنًا فخمًا في شارع تفرسكي العريض الذي تظلله الأشجار العالية، وكان الأدباء يذهبون لزيارتها في كثير من الأوقات. وصار من عادتي أنا وصديق لي – اسمه دوبر وفوسيين، وهو موسيقي بارع – أن نذهب إلى هناك، وكان ماياكوفسكي يأتي أيضًا، وكنت في ذلك الحين قد تعودت أن أنظر إليه على اعتباره أبرز شاعر في جيلنا، وقد أثبت الزمن أن نظرتي تلك لم تكن بعيدة عن محجة الصواب.

ومن المترددين أيضًا على تلك الدار سيفريانين، وهو شاعر غنائي سلس في أسلوبه، يشبه كثيرًا في سلاسته ليرمونتوف، ولديه القدرة على أن يستولي على مشاعرك لأول وهلة، بموهبته الواضحة وتعبيره النافذ النابض الصريح.

وكان من النادر أن يأتي ماياكوفسكي بمفرده، وكانت حاشيته الملكية في تلك الفترة تتألف غالبًا من فنانين مستقبليين ومن سائر الأصناف التي انضمت مبهورة إلى حركته.

وفي دار تلك السيدة، رأيت للمرة الأولى في حياتي، موقد بترول من نوع البريموس، ولم يكن أحد يقدِّر عندئذ أن هذا الاختراع سيملأ برائحة البترول جميع البيوت بعد سنوات قليلة للغاية. فمن ذا الذي كان يجول بخاطره أن مواقد البترول البريموس ستنتشر هذا الانتشار من القطب إلى القطب بهذه السرعة النادرة؟

وكان النموذج الباكر لهذا الاختراع ذا بريق خاطف، ويصدر عنه

صوت عالٍ، ويبعث لهبًا قويًا، وعلى هذا الاختراع الطريف كنا نجتمع في حلقة كبيرة، ونشوي فوقه أضلع اللحم ضلعًا ضلعًا ونحن في نشوة عظيمة. وكانت أذرع ربة الدار ومساعداتها مكسوة بسمرة قوقازية قاتمة من أثر الشمس في شهور الصيف، من المعصم إلى المرفق.

وما إن ينضج ضلع حتى يلقفه فم، إلى أن ينتهي مهرجان الشاي. وأكواب البيرة المثلجة تقرع في مرح وضجة وزياط، وأغاني الفودكا ترتفع بين الحين والحين.

وفي قاعة الاستقبال الكبيرة، أقيمت شجرة ضخمة من شجر عيد الميلاد، استعدادًا لاستقبال العام الجديد. وكانت هذه الشجرة العارية تشارك أشجار الطريق العريض أسفل الدار في الوجوم الشاتي؛ لذا دعتنا ربة الدار إلى اجتماعات دورية للاشتراك في تزيين شجرة عيد الميلاد بطريقة مبتكرة، وكانت هذه الندوات الزخرفية تعقد في الثالثة بعد الظهر، كلما أمكن ذلك. وكانت تلك الساعة تعتبر من ساعات الصباح في عرف ربة الدار التي تستيقظ في الثانية عشرة، وتفطر في الواحدة بعد الظهر!

وفي هذه الندوات، كان ماياكوفسكي يقرأ لنا أشعاره، أو يروي الطُّرف التي تجعل كل واحد منا يغرق في الضحك، وقد يتناول وجبة سريعة يطلبها بغير كلفة من ربة الدار، ويأكل على عجل كي يشترك في لعب الورق الذي كان يغرم به غرامًا شديدًا.

ومايا كوفسكي شديد التهذيب في هذه الاجتماعات، ينطوي على قلق دفين؛ ولكنه يعرف كيف يخفي قلقه بطريقة فنية بارعة. وكنت أحس

أن "شيئًا ما" يجري في أعماقه، وأنه يمر بأزمة رغم مظهره التمثيلي الراسخ، حتى أن قطرات من العرق البارد كانت تنضح فوق جبينه.

ولكن ماياكوفسكي لم يكن يحضر في جميع الأحوال مع بطانة من المستقبليين وأصحاب البدوات الفنية، بل كثيرًا ما كان يصحب أيضًا معه شاعرًا، يستطيع أن يصمد بصورة مشرفة لامتحان إثبات وجوده، بجوار شخصية ماياكوفسكي الفذة. وهذا الشاعر هو بولشاكوف..

ويكفي بولشاكوف فخرًا، أنك تستطيع أن تسمعه بعد سماع ماياكوفسكي، فلا تحس هوة كبيرة أو انقطاعًا. وقد ظلت الصداقة بينهما إلى ختام حياته.

وفي تلك الفترة، كانت المشكلة الكبرى هي المشكلة الدائمة في روسيا المترامية الأطراف؛ وهي مشكلة النقل والتموين التي تزداد خطورة في وقت الحرب، وبدأت تشغل الألسنة ألفاظ جديدة تقابل الأفكار الجديدة، مثل "العتاد" و"العقاقير" و "الترخيصات" و"الثلاجات"، أما الفتيات، فلم يعدن يشغلن الأذهان، لأن أفضل النساء كن قد تطوعن للتمريض في معسكرات الجبهة وقطارات الصليب الأحمر.

كان الموضع الشريف لاي رجل أو امرأة هو جبهة القتال، والوجود في المؤخرة مصدر خزي، ولكن موسكو لم تكن تبالي بهذا، بل اكتفت بالتواري خلف أكاذيب بالية، كاللص الذي يداري جريمته عند ضبطه متلبسًا بعبارات مهلهلة لا يمكن أن تنطلي على أحد.

كانت موسكو تعيش حياة النفاق أثناء الحرب، تتظاهر بالاهتمام بما

يدور في الجبهة، وتنهكها المسئوليات؛ وهي تتجمل بالأنوار والأزهار في صميم الشتاء.

وفي الليل كان صوت موسكو يبدو شبيهًا بصوت ماياكوفسكي شبهًا تامًا؛ فالحوادث التي تجرى فيها تشبه الرعد المتجمع في صوته كما تشبه قطرة الماء قطرة الماء، ولكن ليس تشابه المظهر الطبيعي السطحي، بل هو تشابه من قبيل الصلة التي تربط القطب السالب بالقطب الموجب في الكهرباء، والتي تربط الفنان بالحياة، والشاعر بزمنه.

وكانت دار حكمدار شرطة موسكو تقع قبالة دار السيدة م.. التي نجتمع عندها كل مساء تقريبًا في فصل الخريف. ومن الغريب أن المصادفة ظلت تجمعنا لدى الحكمدار بضعة أيام متوالية، أنا وبولشاكوف وماياكوفسكي، وكل منا يأتي لاستكمال بعض الشكليات الخاصة بتطوعه في الجيش، وكان كل منا يخفي عن الآخرين الغرض من حضوره إلى هناك.

ولما عرف شستوف، الجاويش الوسيم، قصدي... أخذ يلح عليّ كي أقسم له أني سأرجع عن تلك الفكرة الحمقاء. وراح يصف لي في إسهاب شديد أحوال الجبهة وما فيها من فظائع، وأكد لي أني سأجد هناك عكس كل ما أتصوره وأتوقعه من البطولة أو المجد.

وتركني ذلك الجاويش الوسيم، وعاد بعد انتهاء إجازته القصيرة إلى الجبهة. وهناك سقط في أول اشتباك مع العدو.

أما بولشاكوف فدخل مدرسة الخيالة في تفير، ودعى ماياكوفسكي إلى الميدان بعد ذلك، حين حل دوره في التطوع، أما أنا فقد أصرت لجان

الفحص الطبي – لجنة بعد لجنة – على أني لا أصلح للجندية، بسبب تلك الساق.

وفي العام التالي، رحلت إلى منطقة جبال الأورال. وقبل سفري إلى هناك قضيت بضعة أيام في مدينة بطرسبورج، وكان جو هذه المدينة يجعل الإنسان أقل إحساسًا بحالة الحرب التي تعيش فيها البلاد، وليس كذلك الحال في موسكو..

وكان ماياكوفسكي الذي دعى قبيل تلك الفترة إلى التجنيد يقضي مدة من التمرين في بطرسبورج.

ومن مزايا العاصمة أن قلقها وحيويتها وازدحامها، يمكن أن تتوارى كلها تحت امتداد مساحتها الشاسعة التي تستطيع أن تستوعب بسهولة كل أنواع النشاط في الحياة، وتتسع لتنوعها وتناقضها من غير أن يبدو عليها الضيق بهذا التناقض وشوارع بطرسبورج ترتدي ألوان الشفق والشتاء، ولا تحتاج إلى عدد كبير من المصابيح أو كميات ضخمة من الجليد كي تتوهج سطوحها الفضية توهجًا عنيفًا ينتهي بها إلى التلاشي في وهج الأفق على بُعد يسير.

وكنت أتمشى كل يوم تقريبًا مع ماياكوفسكي في طريق ليتينوي الكبير. وكان ماياكوفسكي قديرًا على طي أميال وأميال تحت خطواته الجبارة من غير أن يبدو عليه الجهد.

وفي هذه المناسبة أيضًا، أذهلتني موهبة ماياكوفسكي الخارقة على أن يبدو في موضعه الطبيعي جدًا في كل مكان يحل به، متجانسًا مع كل منظر

من مناظر الطبيعة حوله، فقد كان متجانسًا في مظهره مع بطرسبورج أكثر من تجانسه مع موسكو. والله أعلم أنه كان في موسكو يبدو وكأنه ملكها الطبيعي المتوج!

وكانت تلك الفترة هي التي ظهرت فيها مجموعة أشعاره المشهورة "أرغول العمود الفقري". كما ظهرت له مجموعة أخرى في غلاف برتقالي اللون أسماها "السحابة ذات السراويل!"؛ أما "الحرب والسلام" فكان يكتب عندئذ مسوداتها الأولى.

وذات يوم أخذ يحدثني، ونحن سائران، عن الأصدقاء الجدد الذين يهم أن يصحبني إليهم، وعن الكيفية التي تعرف بها إلى الكاتب مكسيم جوركي، وكيف أن المضمون الاجتماعي أخذ يحتل مزيدًا من المكانة في مشروعاته الفنية، وأن ذلك سوف يتيح له العمل في اتجاهات جديدة، فهو الآن يخصص أوقاتًا محددة للقيام بأعماله ومحاولاته.

وفي ذلك اليوم زرت معه للمرة الأولى آل بريك.

ورحلت بعد ذلك إلى جبال الأورال.

وهناك كانت أفكاري وخواطري تتجه كثيرًا جدًا إلى ماياكوفسكي، ومن عجب أني كنت أتصوره هناك أكثر اتساقًا مع مشاهد الأورال وهي شاتية نصف آسيوية، حيث جرت أحداث قصة ابنة القائد المشهورة لبوشكين.

كان ماياكوفسكي يبدو لي أليق بالوجود هناك، مما كان في موسكو أو بطرسبورج.

ولما نشبت ثورة فبراير، عدت إلى موسكو على وجه السرعة، وجاء ماياكوفسكي بسرعة أيضًا من بتروغراد، واستقر في حي ستولشنيكوف، وهناك كنت أذهب لزيارته كل صباح؛ فأجده يتأهب لمغادرة فراشه، وأجلس فأستمع إليه وهو يتلو عليّ – أثناء ارتدائه لثيابه – آخر ما خطه قلمه من ملحمته الكبيرة "الحرب والسلام".

ولم أحاول أن أبدي له رأيي بكلمات، لأنه كان يقرأ ذلك الرأي في نظرات عيني. وكان إلى جانب هذا يعرف مدى تأثيره عليّ.

وذات يوم فتحت فمي وكلمته بصراحة، قلت له إن الأوان قد آن ولا شك كي يتخلى بصفة نهائية عن النزعة المستقبلية، ليكتب بطريقة جادة مستقيمة، وأن يعلن ذلك التحول على رؤوس الأشهاد.

وضحك... وأوشك أن ينزل على رأيي.

لقد أوضحت في كثير من مواضع هذا الكتاب مبلغ ما كان لماياكوفسكي من التأثير فيّ. كنت أحبه وأكبره، ولكن ما من حب في هذه الدنيا يخلو من الجراح، والخدوش، والتضحيات.

وقد وصفت للقراء ماياكوفسكي على الحالة التي كان بها عندما دخل حياتي للمرة الأولى؛ ولكن يتبقى بعد هذا كله، أن أحدث القراء عما كان لدخوله في حياتي من آثار، وأني عازم الآن على ذكر ما أغفلته.

لقد عدت يومئذ من المقهى، بعد أن سمعت منه تلاوة أشعاره، وأنا مهتز الوجدان اهتزازًا شديدًا، ولا أدري ماذا عساي أصنع.

أجل، لقد ثقل على نفسي الإحساس بافتقاري التام إلى الموهبة الحقيقية؛ تلك الموهبة التي أراها مكتملة تمام الاكتمال بصورة تستثير الروعة والخشوع.

وليس هذا كل ما عانيته من الألم، فما هذا إلا نصف الخطب، وهو على جسامته هين بالقياس إلى نصفه الآخر.

فأدهى ما في الأمر، أني أحسست نحو ماياكوفسكي بشيء من التأثم؛ وهو تأثم لا أدري له سببًا، ولا مصدرًا، ولا مبررًا. إحساس عميق أليم مضطرب، بحيث أنني لو كنت أصغر سنًا لكان ذلك كافيًا لهجراني الأدب هجرانًا تامًا؛ ولكن سني كانت عقبة أمامي في سبيل تغيير اتجاهي، ولا سيما أنني تحولت من قبلة في الحياة والمهنة إلى قبلة أخرى ثلاث مرات من قبل، فلا يسعني الآن أن أتحول مرة رابعة.

وثمة اعتبار آخر؛ أن العصر الذي نعيش فيه بأحداثه وتغيراته، وكل المؤثرات التي تؤثر في كلينا كانت تربطني بماياكوفسكي. فهناك بغير شك أشياء كثيرة مشتركة فيما بيننا، وكنت متفطنًا إليها، ولكني كنت مدركًا في الوقت نفسه أنني يجب أن أكون على حذر شديد من ازدياد أوجه الشبه بيننا بمرور الزمن، لأن ذلك سيقضي على تفردي وشخصيتي.

ومن هنا بدأ حرصي على تغيير بعض معالم الشبه بيني وبين ماياكوفسكي، وعلى التخلي عن كل ما قد يؤدي إلى ذلك التشابه في إنتاجنا؛ فتخليت عن الرومانسية، وإلى هذا يرجع الطابع غير الرومانسي في مجموعة أشعاري المسماة "فوق الحواجز".

وليس هذا بالأمر السهل؛ فإن مفهومًا كاملاً للحياة يكمن تحت الأسلوب الرومانسي الذي عزمت أن أحرمه على نفسي منذ تلك اللحظة. وذلك المفهوم يكاد يكون معادلاً لحياة الشاعر كلها، لأنه انحدر إلينا عن الرمزيين، وأولئك ورثوه عن الرومانسيين، ولاسيما الرومانسيين الألمان.

وذلك المفهوم الرومانسي هو الذي تأثر به "بلوك"، بيد أن ذلك التأثر لم يدم إلا مدة قصيرة، وبعدها لم يعد ذلك المفهوم ملائمًا له، ولا للقالب الذي يتفق مع اتجاهاته الطبيعية وكان لابد له أن يسمو بذلك المفهوم أو يتخلى عنه نهائيًا، وقد تخلى عنه كلية؛ أما ماياكوفسكي وايزنين فقد أمكنهما أن يسموا به.

أن الأسلوب الرومانسي لا يتجلى في إشراقه وبهائه إلا لدى شاعر يخال نفسه مقياسًا للحياة، ويدفع ثمن ذلك الاعتقاد من حياته نفسها، وأكثر ما يكون إشراق الرومانسية في الأسلوب الرمزي، وينحو نحو الأورفية والتخيلات المسيحية.

وكان في حياة ماياكوفسكي، وفي مصير ايزينين، عنصر خفي يحن بصاحبه على القضاء على نفسه، كي ينتقل من حياة الواقع إلى رمزية الأسطورة ومأساتها.

أما خارج نطاق الاسطورة، فالرومانسية لا تخلو من زيف. والشاعر الذي يعيش في أعماق الرومانسية وينطق بلسانها لابد له من مجموعة تحيط به من المتشاعرين الخامدي المواهب كي يظهروا للعين بهاء شاعريته!

إن هؤلاء التافهين ضروريون جدًا لإظهار شاعرية الرومانسية، وبدونهم يختفي المضمون الشعري للبرجوازية الصغيرة؛ فليست الرومانسية إلا ذلك المضمون!

وكما تخليت عن الرومانسية في الشعر، تخليت عنها في فن ترجمة السير وفهم التاريخ. وكان مفهومها الرومانسي قد أوشك أن يخلط معنى البطولة بسفك الدماء، وهذا المفهوم لا يمكن أن يقوم إلا على الأساس الرومانسي العام، فلما تركت المفهوم الرومانسي العام للحياة، تقوض مفهوم البطولة الدموية على الفور، ثم عملت على التخلص من آثاره بعناية.

وقد ظهر ذلك بوضوح في مجموعته الشعرية "أختي: الحياة"؛ ففيها تعبيرات غير متداولة في تلك الفترة، عنت لي، في صيف الثورة.

وإلى هذه المرحلة الحاسمة في منهجي الأدبي، وتحولي عن الرومانسية إلى الأبد "شعرًا ونثرًا ومفهوم حياة". ترجع هذه القصة الصغيرة التي لعلها تُعين القارئ على تصور هذا التحول، وإدراك السمات التي أخذت أتحراها في إنتاجي الأدبي بعد ذلك اليوم.

وترجع هذه القصة إلى أوائل سنة١٩١٨، واسمها "خطابات من تولا".

***

القبرات المرحات يصببن في الهواء أغنياتهن. وفي القطار القادم من موسكو، كانت الشمس تتدفق على الأرائك الوثيرة المخططة التي لا تكاد تحصى، وعبر القطار قنطرة كبيرة، ثم بدت بلدة وقف عليها القطار، وهي مثل غيرها من بلاد الأقاليم، يلقى الشخص فيها شخصًا آخر قرب المحطة

فيحييه، ويسأله عن الأخبار، إذا رآه يحمل حقيبة في يده:

– طاب يومك، أقادم أنت من هناك؟

– كلا، بل أنا ذاهب إلى هناك.

– أوه، لقد تأخرت كثيرًا في الذهاب. وأعتقد أن كل شيء قد شارف على الانتهاء الآن.

ومن تولا، كانت يد تسطر هذا الخطاب:

تولا في ١٠ منه، إذن أنت قد تمكنت من تغيير مقصورتك، بعد أن اتفقت على ذلك مع المحصل. ومنذ لحظة دخل المقصف الذي أجلس فيه ذلك الجنرال الذي تنحي لك عن مقعده، وحياني كأني من أصدقائه القدامى.

والقطار التالي الذي يقدم من موسكو، سيرحل في الساعة الثالثة ليلاً.. وكان الجنرال حريصًا على تحيتي عند انصرافه بعد تناول مشروبه، وفتح له البواب الباب في احترام.

ياعزيزتي.. إن هذا الوداع لم يكن له معنى، لقد أحسست بعده أن افتراقنا أقسى من حقيقته الظاهرة عشر مرات. إنه يبهظني ولا أكاد أدري كيف أحتمله؛ لأن لحظة الوداع أطلقت جناني، وفتحت لمخيلتي الباب كي تحلق وتنشيء مائة ذكرى أليمة تطن في دماغي وتخزني.

إني أسمع الآن صوت الترام الذي تجره الخيول قادمًا من بعيد. وهاهو ذا يقف ليغيروا الخيل، ولدي رغبة في القيام لمشاهدة المدينة، أن حنيني

قاسٍ حزين!، لابد لي أن أجلد هذا الحنين الموجع، سأجلده بأشعاري!

ما أقسى أن يولد الإنسان شاعرًا! كم تعذبه مخيلته عندئذ ولا تعرف الرحمة!، حتى الشمس، وهي تغوص في زجاجة البيرة الذهبية الصافية الشفافة حتى القاع، تثير عندي لوعة ووجدًا!

وأمامي، في الطرف الآخر من المائدة، مهندس زراعي أو مزارع خبير، أو شيء من هذا القبيل. وجهه أسمر، ويده تبدو في الشمس خضراء، وهو يقلب القهوة بالملعقة في فنجانه. آه ياعزيزتي ! إن الجميع هاهنا غرباء؛ غرباء يخيل إليهم أنهم يرتشفون شعاع الشمس مع جرعات اللبن الصغيرة.

سأمضي الآن وألقي نظرة على المدينة، وهي بعيدة عن مرأى العين لمَن ينظر من المحطة، ويوصل إليها الترام الذي تجره الخيول، ولكني أحسب هذا ليس ضروريًا في شيء، فالسير إليها لا يستغرق أكثر من أربعين دقيقة.

وقد عثرت في جيبي على الإيصال. وكنت أنت على حق في الموعد المحدد للوفاء وهو غدًا. ولست أظن أني سأستطيع الوصول إلى مكتب الرهون في الوقت المحدد، ولكني سأتوجه إلى هناك بعد غد. فلا تقلقي، لأن المكتب لا يدقق كثيرًا في تأخري يومًا واحدًا.

إن الكتابة عذاب، والاسترسال فيها أليم؛ ولكني لا أكاد أتمالك نفسي من الاسترسال.

***

وتجاوزت الساعة الخامسة بعد الظهر. وساد صمت عجيب، وصار من المتعذر في الغسق أن يعرف الناظر بعينيه أين ينتهي العشب وأين تبدأ

أكوام الفحم. وبدأ في صفحة السماء نجم واحد، أما مضخة الماء فلم يكن أمامها أحد، وقد تجمع الماء في بركة صغيرة إلى جوار المضخة، ترتجف فوق صفحتها ظلال شجرة عتيقة.

لم يكن هناك إنسان، وحتى الآلات كانت لائذة بالصمت التام، والسماء في ذلك الغسق شفافة شفافية أشبه بشحوب المرض، ثم أقبلت آخر مركبة للترام من المدينة، وتردد صدى صهيل الخيل وهم يفكونها لتستريح.

***

تولا في ١١ منه... الساعة الآن الواحدة صباحًا، وقد عدت إلى مكاني على المائدة، وفي الطرف الآخر منها جماعة صاخبة تتناول العشاء، وكل منهم يحاول أن يبدو عبقريًا في غرابة أطواره وآرائه، وكل منهم يشير بيديه، ويدق بإبهامه أو سبابته على المائدة، بعد أن يمسح فمه من بقايا الطعام والكبيرة. وكلهم حليق الذقن والشارب بعناية فائقة!

أتدرين من هم هؤلاء البوهيميون؟

إنهم فرقة سينمائية حضرت من موسكو إلى تولا، كي يصوروا مناظر لفيلم "الوقت العصيب"، وكانوا قبل اليوم في الكرملين لتصوير بعض مناظر الفيلم هناك، أما هنا فستكون المناظر كلها بين تحصينات تولا، وعلى شاطئ نهر أوروبا. وفهمت من كلامهم أن التصوير سيكون دقيقًا جدًا، وأن مراجعهم التاريخية وافية للغاية عن قصة الفيلم التي تدور في القرن السابع عشر، وكان بعضهم لا يتوانون أثناء العشاء عن فتح الحقائب وإخراج المراجع للاحتجاج بها في المناقشة. أما الممثلات البولونيات فكن في غاية الفظاعة!

أشعر بغثيان أيتها العزيزة مما حولي! وللأسف هو نموذج للمثل الأعلى في عصرنا؛ مثل أعلى تتصاعد منه أبخرة جهل خانقة ممتزجة بوقاحة ليس لها نظير!

إن أكثر من نصف العبارات صيغ محفوظة مكررة: عبقرية! شاعرية! ملل! افتقار إلى الموهبة! بورجوازي صغير منحل! مأساة! مهزلة !

وقد أزعجني جدًا أن أجد نفسي مصورًا في هؤلاء الناس؛ فأنا أيضًا ابن زمني، وأستخدم هذا الأسلوب في التفكير والتعبير، وما أفظع أن يرى الإنسان صورته واضحة العيوب ممثلة في سواه!

إن هذا النهج في النظر إلى الحياة هو الذي يسود العالم الآن. ولم يعد هناك مكان يستطيع فيه الإنسان المنفرد أن يحظى لروحه بالدفء والسكينة؛ لأن الحياء والاحتشام قد غرقا إلى الأبد في الطوفان الجماعي الجديد.

إني أشعر للمرة الأولى منذ طفولتي الأولى أن طاقتي قد استنفدت، وأن الشاعر في أعماقي يختنق؛ الشاعر الذي تتمثل فيه فرديتي التي عشت بها حتى اليوم.

***

ومن المفارقات الأليمة أن الشاعر وهو جالس قبيل الفجر "في الثانية صباحًا" على مائدة المقصف في محطة تولا، يشعر للمرة الأولى أيضًا أن هذه هي تولا. وليست تولا هي البلدة التي طافها على قدميه بالأمس ثم عاد إلى المحطة، هذه هي تولا التي عرفها تولستوي واقترنت باسمه وأعماله.

وأخيرًا، ها هو ذا صمت الليل يتمزق، وهاهي ذي أصوات عمال

الإشارات تتردد على الرصيف في الخارج، وأصوات صفارات القاطرات التي تستيقظ من غفوتها تمزق السكون، وهاهي ذي مصابيح الإشارة الحمراء والخضراء توقد وتلمع في الظلام..

وبينما أنا أكتب هذه السطور، ينهمك العمال في إلحاق العربات بالقاطرة، لتكوين القطار المسافر إلى "اليتز".

ما أشد الوحدة على الإنسان.

إن وحدتي لا يمثلها لي شيء وسط هذا الجيل الجديد الحليق الشارب، مثلما يمثلها لي شاربي الكث!

في حقيبتي الموس التي أحلق بها لحيتي؛ سأنهض إلى حجرة الغسيل، وهناك أحلق ذقني، وشاربي أيضًا!

وحلق الشاعر الانعزالي الفردي شاربه، فصار مثل سائر المحيطين به من أهل الفن. في الجيل الصاعد!

وركب في الساعة الثالثة القطار المسافر إلى موسكو. وفي سكون نفسي طال افتقاره إليه، اضطجع على أريكة القطار الوثيرة وراح يترقب بزوغ الشمس من نافذة القطار، وهي تبدي طرف أشعتها القانية من وراء بعض التلال برهة ثم تتوارى لتبدو من جديد أقل احمرارًا وأكثر رقة.

ومنذ دقيقة واحدة، ظهر أول شعاع مستقر من أشعة الشمس. ولن تلبث الشمس أن تعلو في قبة السماء.

***

إن جو الشتاء الذي يلف الأشجار العالية وسقوف البيوت، يدخل على حجرة المائدة التي لم تمسها يد التنظيف منذ شهور!

إن صاحب المسكن صحفي ملتح غريب الأطوار، لم أعرف له مثيلاً في شرود الذهن والنسيان والخلط بين الأشياء وهو طيب القلب جدًا، يظن من يراه أنه أعزب لم يتزوج، مع أن له أسرة كثيرة العدد تعيش في إقليم اورنبورج.

ونادرًا ما يجد لديه لحظة فراغ، ولكنه ينتهز تلك اللحظة التي لا تسنح إلا مرة في كل جملة من الأسابيع؛ كي يزيح عن مائدة الطعام أكوام الصحف التي تحمل أنهارها شتى ألوان الرأي في مدى شهور متعاقبة. ويزيح معها بقايا وجبات إفطاره – وهي الوجبات الوحيدة التي يتناولها في البيت – وهذه البقايا عبارة عن قطع من اللحم المقدد، وكسرات من الخبز الجاف، من عادته أن يكومها بعناية وانتظام بين مواد قراءاته الصباحية.

وقبل أن ينتصف الشهر، وجدت النار مشبوبة في المدفأة، ولهبها يشيع المرح والدفء بصورة جميلة، شبيهة بصورة عيد الميلاد في قصص ديكنز الذي يحيك خيوطها حول الأوز المشوي وكتبة المصارف الذين يعيشون لعد أكداس النقود الذهبية!

وعند سدول الليل، تبدأ دوريات الحراس تطوف الشوارع وجنودها يطلقون نيران مسدساتهم بسخاء.. وبين الحين والحين تعقب الطلقات النارية صرخة متوحشة، وفي تلك الأيام لم يكن من السهل أن تعرف بالضبط، هل يصدر صوت الصرخة من الشارع، أم من البيت!

كان وقتًا عصيبًا حقًا، يضع المرء على شفا الجنون. والوحدة تكاد

تقتل الإنسان، لولا رنين التليفون من حجرة المكتبة بين ساعة وأخرى، لتصلني بالعالم وتؤكد لي إحساسي بوجوده.

ورنّ التليفون ذات يوم، وإذا بدعوة إلى حضور اجتماع يعقد في تروبنسكوفسكوي يحضره جميع "أفراد القوة الشاعرة الموجودون حاليا في موسكو". كما هو نص الدعوة التي أبلغنيها ماياكوفسكي.

وكثيرًا ما كان هذا التليفون نفسه هو الوسيلة التي ناقشت بها كثيرًا من الأمور مع ماياكوفسكي، ولكن ذلك كان منذ أمد طويل، قبل التمرد الذي قام به كورنيلوف.

وقال لي ماياكوفسكي أيضًا أنه أضاف اسمي إلى بيان عام وقعه بولشاكوف وليبسكيروف وكثيرون مثلهما من ذوي الإخلاص، وأحسست بفرح لهذه الفرصة التي اتيحت لي كي أتحدث مع صديقي القديم بصيفة شبه رسمية، وكأنه إنسان غريب عني!

ولم أتردد في مناقشة حول هذا التصرف؛ مناقشة قوية حامية. والحق أنه لم يدهشني إقدامه على استخدام اسمي بدون تكليف، مثلما أدهشني ما يدل عليه ذلك التصرف من فقر في الخيال لديه!؛ إذ ليس المهم في المسألة أنه استخدم اسمي بغير إذن مني، بل المهم أنه واثق سلفًا من أن غيبتي مدة عامين لم تؤثر في اتجاهاتي أو أفكاري أو شواغلي الذهنية.

إنه على الأقل كان ينبغي أن يهتم في مدة العامين كي يعرف هل أنا على قيد الحياة – في هذه الفترة المضطربة – أم لا؟ وهل لم أزل مشتغلاً بالأدب أم تركته إلى عمل سواه؟

وكان جوابه على هذا كله، أنه كان يتسقط أخباري، وعلم بعودتي من الأورال. ولما طالبته بنشر تكذيب في الصحف وألححت في ذلك، كان جوابه أن الساعة متأخرة لا تسمح بهذا، ثم أردف قائلاً إن شهرتي محدودة جدًا في الوقت الحاضر، فنشر التصحيح في الصحف ليست له أهمية تذكر!

وغاظني إنه لا يريد أن يقتنع بأن اتجاهي الأدبي قد تغير وأني تركت الرومانسية التي يعتمد هو وأصحابه عليها.

وعجبت بعد كل هذه المناقشة من إصراره على تلبية الدعوة لذلك الاجتماع، كأني لم أقل شيئًا!

***

وذكرني ماياكوفسكي بهذا اللقاء الشفوي عن طريق التليفون بعد انقضاء عدة شهور، حينما تقابلنا في بيت الناظمة الهاوية. وكان معنا في ذلك الاجتماع بالمونت وخوداز يفتش وايليا اهرنبورج وفيرا انبر وكامنسكي واندرية بيلي وغيرهم وغيرهن وبطبيعة الحال، لم أكن أعلم في ذلك الحين أن تلك الهاوية لقرض الشعر ربة الدار، ستجعل منها الأيام القادمة شاعرة لا تبارى، ولم أكن قد قرأت لها شيئًا من المنظومات التي قيل وقتئذ أنها كتبتها؛ بيد أني أفردتها من أول نظرة بإحساس غريزي في داخلي باعتبارها من معدن يختلف عن معدن سائر هؤلاء الرجال والنساء. ففيها تلك البساطة المحببة التي تستولي على انتباه المرء وتأسره لأول وهلة، وفيها تلك التلقائية البعيدة عن التصنع والتمثيل؛ وهي أحب الصفات إلى قلبي، ولديها حماسية رائعة مثل حماستي لتجاهل جميع الحواجز والعادات

عند الشعور بالإعجاب والمودة الحقيقية نحو شخص، أو عندما تذكي جذوة الإعجاب فينا لمحة عظيمة أو آية فنية حقيقية.

وفي تلك الليلة، تبادلنا كلمات قلائل غنية بالمودة والبساطة، كأنها قرون الاستشعار التي تتحسس بها الحشرة ما حولها كي تطمئن إلى أنه غير مشحون بالعداء أو الخطر، وكانت هذه الكلمات القلائل كافية لاطمئنان نفسينا، فلم نكن بحاجة إلى مزيد، وكان حسبي في تلك الليلة وما احتشد فيها من الشعراء؛ إنها كانت لي بمثابة ملاذ أتحصن به من القطبين المتنافرين اللذين يمثلان في القاعة الحركتين المتضادتين المتنافرتين في المجال الأدبي، وهما الحركة المستقبلية والحركة الرمزية.

وبعد أن انقضت ساعة في التعارف والمجاملات بدأت القراءة. وتتابع الشعراء كل منهم يتلو قصيدته متفننًا في التجديد الشكلي والإغراب وبتنغيم وتحر للرنين في الإلقاء والحركة، ولكن من غير ثمرة تستحق الذكر.

وحل دور ماياكوفسكي، فنهض واقفًا بقامته المهيبة، ووضع يديه فوق حافة رف خال عند ظهر الأريكة، وبدأ في تلاوة قصيدته المشهورة "الإنسان".

ورأيته في هذه المرة، كما كنت أراه دومًا؛ مشرقًا بقامته السامقة فوق مستوى جميع الجالسين وجميع الواقفين على السواء، وكان يسند رأسه الجميل براحة يده مرة، ويريح ركبته فوق حافة الأريكة مرة أخرى، وهو يقرأ تلك القصيدة، فيكشف عن أعماقها غير المألوفة، ونستشف من إلقائه آفاق وحيها المترامية الرفيعة.

وكان اندريه بيلى يجلس قبالته مع مارجاريتا سابشنيكوف، ومما يجدر بالذكر أن أندريه بيلي قضى مدة الحرب كلها مقيمًا في سويسرا إلى أن نشبت الثورة فردته إلى وطنه. ولعله في تلك الليلة، كان يرى ماياكوفسكي ويسمعه للمرة الأولى في حياته؛ فقد كان يصغي كما يصغي المبهور، ومع أنه لم يتعمد إظهار شيء من الحماسة إلا أن وجهه كان يعبر أبلغ التعبير عن حماسته الباطنة لما يسمع، فقد كان يحملق في الرجل الذي يتكلم أمامنا في دهشة يمازجها الامتنان.

ولم يكن في وسعي أن أرى وجوه جميع الذين ينصتون، ومن بين مَن لم أستطع رؤيتهم إيليا اهرنبورج؛ ولكني كنت أرقب وجوه من أستطيع أن أراهم، فلاحظت أن الغالبية منهم لم يتخلوا لحظة واحدة عن الرزانة التي تغطي ما يشعرون به من غيرة وتستُّر ما يضمرونه من الأنانية والتحيز لذواتهم، فكلهم كانوا يشعرون أنهم أسماء ذات شهرة، وأنهم جميعًا في عيون الناس شعراء، فلم يكن يصغي بمعنى كلمة الإصغاء سوى بيلي. استغرق بكليته في السماع ونسى آنيته، فجرفه الاغتباط الفني ولم يكدر عليه صفوه شيء من الندم أو الحسد، وهذا شأن تلك الذري العالية التي يحملنا إليها السرور الفني الخالص، فهناك يكون الإنكار للذات، والفناء في الجمال والشوق الأبدي إليه، من غير طموح أناني أو غيرة وضيعة.

وهكذا جمعت المصادفة أمام عيني العبقريين اللذين تدور حولهما المدرستان الكبيرتان في الشعر المعاصر، وتتناصبان العداء إلى آخر رمق؛ وهما بيلي وماياكوفسكي، وقد أحسست بوجود ماياكوفسكي أقوى وأرسخ وهو بجوار بيلي، فتجلى لي الإحساس به قويًا نابضًا مثل أول لقاء لنا.

ولكن تلك الليلة كانت آخر ليلة ينتابني فيها هذا الإحساس، فلم أره إلا بعد سنة حيث قرأت له قصيدة جديدة لي أثنى عليها عشرة أضعاف ما كنت أتوقع منه. ومرّ عام آخر ثم التقينا مرارًا في روسيا وخارجها، واجتهدنا أن نعيد مودتنا إلى سابق عهدها من المخالطة والتعاون في العمل؛ ولكني وجدتني أشعر بعجز عن فهمه، يزيد يومًا بعد يوم. كنت أحس به ينأى عني نأيًا مضطردًا!

والآن في نيتي أن أتحدث عن المضمون الغريب المتأزم الذي يسميه الناس عادة عام الشاعر الأخير.

إن نهاية الحياة بالنسبة لأي إنسان، تعني أن تقبر مشروعاته التي لم يستطع تحقيقها؛ وأما تلك الأعمال التي تمت، فما كان أحد ليفطن إلى تمامها لولا ساعة النهاية التي يتولد منها إحساس جديد بالتمام، ولكنه تمام صار بين يدي التاريخ والأبدية.

إن الناس لا ينفكون يغيرون ويبدلون في عاداتهم، ويشغلون أنفسهم ما عاشوا بخطط جديدة ومشروعات مبتكرة، ولا يكفون ما عاشوا أيضًا عن التفاخر والاعتزاز بتطورهم الروحي وارتقائهم المعنوي. وفجأة تحم النهاية عنيفة أحيانًا، فاجعة دائمًا، وحتى النهاية الطبيعية تشعرنا بالفجيعة لأن عجز الإنسان عن الدفاع عن نفسه أمام الموت الطبيعي يضفي على النهاية دائمًا جوًا لا يختلف كثيرًا عن جو الموت الفاجع وجو الانتحار؛ فالجو في جميع حالات الموت المفاجئ، على الخصوص، هو جو الفناء والتلاشي والعدم.

وإزاء هذه الرهبة، يقف الناس وينفضون أذهانهم مما كانوا بسبيله من الحركة مع تيار الحياة المتجدد ليتخذوا سمتًا جديدًا يتفق مع الانقطاع عن الحياة والدخول في فلك التاريخ. يأخذ الناس في المقارنة، ويرصدون الملاحظات والنتائج، ويسجلون فيما يسجلون أن الفقيد في سنة كذا فكر في إنشاء صحيفة للفلاحين، أو أنه أقام معرضًا لأعماله في مدى عشرين سنة، أو أنه كان مشغولاً بالحصول على جواز سفر إلى الخارج.

وأما أثناء الحياة، فما أشد عجز عيون الغرباء عن إدراك الحقائق المطوية في الصدور. عن إدراك الهمود والمرارة والشعور بخيبة الآمال، وقد يهز الغرباء رؤوسهم حين يرون الشاعر منطويًا على نفسه، مؤثرًا للعزلة عقدًا كاملاً من السنوات أو أكثر، وإذا رأى الغرباء، ظهر عليه الميل للمشاكسة أو للانتحاب! إنه كالطفل الذي عاش منطويًا في الظلام طويلاً حتى أرهقت روحه الوحدة والعزلة. قد يتلهف في لحظة من لحظات عمره على أي يد تعثر بها يده في الظلام، ويعجب الغريب من ذلك الإنسان الذي يعرفه متكبرًا منطويًا، كيف يتشبث به هكذا من غير سبب معلوم، وهو لا يتشبث في الحقيقة إلا بشيء ينفي عنه الشعور بالوحدة والوحشة والأسى والنبذ.

وما أكثر الغرباء الذين شهدوا تلك الحالات النفسية الغريبة لدى الشاعر، فأبوا أن يصدقوا آذانهم، أما القلائل من ذوي الحاسة والفطنة النفسية، فهم يشعرون بالخشوع والرقة المستفيضة أمام لحظات الضعف لدى الشاعر، حتى ليخيل إليهم أنهم لم يعيشوا ولم يمارسوا التجربة النفسية في أعماقها الحقيقية البعيدة إلا في تلك اللحظات؛ اللحظات التي يتكشف

فيها الجبل الشامخ عن وديان في باطنه سحيقة، أو يتكشف فيها السطح الموحش ذو الأشواك عن حنين حقيقي ورقة مرهفة عذبة حزينة تحت ذلك الغلاف الجافي.

وآفة كل شاعر هم أولئك الغرباء الفضوليون على المعرفة والشعر. لا يفهمون الشاعر في لحظات حياته، ولا سيما حين تتكشف أعماقه فتبدو لهم تداعيًا وضعفًا، ولا يفهمون الشاعر بعد ختام حياته الفاجع. وأكثر ما يعنيهم أن يتساءلوا:

– ترى كيف كانت حياته الخاصة؟

كأنما تلك التفاصيل التافهة، يمكن أن تزيدهم بالشاعر معرفة ولحياته فهمًا، وهم في الحقيقة يظنون أن نوم الليل وقيام النهار، والسير على قائمتين، هو ما يسمى به الإنسان إنسانًا. وينتظرون بعد هذا أن يرتد تعريف كل إنسان تلك السمات في خطوطها العريضة.

ولكن الشاعر ليس نوم ليل وقيام نهار وسيرًا على قائمتين. إن الشاعر شيء غير هذا.. إنه مدينة حقيقية لها وجود واقعي.. مدينة كبيرة مترامية متنوعة الأبنية والطرقات وفنون العمارة ومستويات السطوح والتنظيم، ولكنها مدينة غريبة، تختلف عن سائر المدن؛ مدينة لا يكاد يزول عنها الشتاء. الظلمة ترخي سدولها في ساعة مبكرة جدًا من النهار هناك، ويوم العمل في تلك المدينة لا تقوم قائمته في ضوء الشمس، بل في المساء تحت أضواء المصابيح.

وفي بداية نشأتها تسود الوحشية الفظيعة المروعة دروب تلك المدينة

ومغانيها. ولابد من فتحها وكسر شوكة وحشتها وعدم اكتراثها، ويومًا بعد يوم يروض من أخلاق هذه المدينة الوحشية ما يروض، وتكثر في شوارعها ومغانيها الأضواء، وتشتعل المواقد في الدافئ؛ ولكن الجليد يظل، على حاله مغطيًا بغلالته البيضاء كل شيء.

وبهذه المدينة الغريبة المترامية الأبعاد، يمر الناس في قطارات السكة الحديد، أو على الزحافات، أو مشاة. قد لا يلتفت إليها في صمتها أحد، ينظرون إليها بعين غير واعية، إلا إذا كانت هذه المدينة خارقة للمألوف بمنظرها التأثيري، ولكن الأرجح أنهم لا يفطنون إلى ما بداخلها، يرونها منظرًا كأي منظر، ولا يدركون تشعبها ووحشتها وما تكلفته في عمرانها وتمهيدها من جهد.

ومثل سائر المدن المغلقة في الشتاء، لا تعدم هذه المدينة عابر سبيل أفاق يرقد عند أسوارها لينام، أو يلم بمنعطف فيها ليقضي حاجته الطبيعية غير متستر!

بلاد الشاعر مثل ميلاد العملة الجديدة المصكوكة من الفضة، تخرج من يد الصانع لامعة طريفة، ثم تتعرض للألوان من الحظوظ؛ فهذا طفل يتخذ منها طوقًا يتلهى به ويدحرجه على الأرض، وهذا شحيح يجمع النقد على النقد، وهذا متلاف لا يلم بيده النقد حتى يخرج، وتظل القطعة الجديدة اللامعة تتقلب بين الأيدي وتتقلب عليها الحظوظ إلى أن تذهب جدتها اللامعة، وتنتهي إلى فلاحة عجوز تدفنها في جورب صوفي قديم حيث تفقد طلاوتها إلى الأبد، ويعلوها الصدأ، وتتلاشى شخصيتها بعد أن حرمت الشمس والهواء.

إن الناس لا تفهم الشاعر؛ لأنهم لا يفهمون إلا الحقائق الموضوعية السطحية، أما الضباب والجليد اللذان ترقد تحتهما مدينة كاملة ذات أبعاد مترامية تعيش في الغموض والوحشة، فتلك أشياء لا يفهمها الناس الذين لا يعترفون إلا بالحقائق الملموسة من قبيل "ممنوع التدخين"، "ممنوع البصق"، "الوقت من ذهب".

فإذا قلت لهؤلاء أن فلانًا الشاعر شنق نفسه، نظروا إليك وقال قائلهم:

– هذا المغفل..شنق نفسه حقًا؟

– يبدو أن في حياته مأساة حب..

– حب؟ هو يحب؟ ها ها ها! إنه لا يحب إلا نفسه!

وليس هذا عجيبًا، إذا تأملناه عن كثب؛ إذ ليس كل إنسان رحالة مكتشفًا ليصل إلى قلب المدينة النابض ولا ينظر إليها وهو يمر بها من بعيد في عربة قطار، أو وهو يلم ببقعة من أسوارها ليقضي حاجته الطبيعية غير متستر!

***

مكاتب التسجيل والتوثيق، خصصتها الدولة كي ترصد فيها المواليد والوفيات والزواج، عملية رصد ليس إلا؛ فليس في تلك المكاتب آلات لقياس الحقيقة، والأمانة، والصدق، تعجز الأشعة السينية عن تصويرهما وقياسهما.. فليس المطلوب في تلك المكاتب كي يكون التوثيق نافذًا سوى ثبات يد المحرر والموقع على الوثيقة، وبعد ذلك تترتب الحقوق، ولا يكون هناك مجال للشك في شرعية ما رصد في سجلات التوثيق.

أما الشاعر، فإنه بيده يرصد ولادته، وبأعماله يقدم الدليل على صدقه، ولكن في هذه المرة نجد الشك، ونجد المقارنة، ونجد المقاومة والمعارضة.

وسينظرون في حياته الخاصة وغرامياته، ويطلقون الظنون والتخمينات حول عواطفه وانفعالاته. ويقارنون بين حبه الأخير ومحبوباته السابقات، وهم لا يعلمون أن المرء يستطيع أن يحب لا إلى المستقبل الأبدي فحسب، ولكنه يستطيع ما هو أهم من ذلك وأخطر بمراحل؛ يستطيع أن يحب اليوم بأثر رجعي، يحب اليوم حبًا يكمل به ما كان ناقصًا في غرامه السابق، ويرتفع فيه بعواطفه الماضية كلها إلى الذروة التي كانت عاجزة عن بلوغها.

إن حبًا جديدًا يستطيع بجلاله وروعته أن يستجيش كوامن النفس كلها وقواها، جيشانًا يحلق بها وبتجاربها الماضية جميعًا وبذكرياتها الوجدانية إلى سماء لم تستطع بلوغها، على شدة شوقها إليها فيما مضى من العمر.

إن حبًا جديدًا تستطيع أصالته أن تؤكد للشاعر أن هذا هو الحب الذي افتقده عبثًا في كل حب سابق، فلا يعيش في لحظة راهنة ذروة أيامه القابلة فحسب، بل يعيش فيها كل أيامه الماضية على مستوى أعلى.

ومع هذا فما أشد ضلال الناس، وهم يبتذلون على ألسنتهم كلمتين خطيرتين؛ هما كلمة العبقري، وكلمة المرأة الحسناء، وكم هناك من تشابه يجمع بين العبقري والحسناء!

إن الحسناء مقيدة الخطوات منذ طفولتها؛ فهي جميلة، وهي قد اكتشفت أنها جميلة في مرحلة مبكرة من عمرها، وعالم الطبيعة هو المكان

الوحيد الذي تستطيع فيه أن تحقق وجودها تمام التحقيق؛ ففي ذلك العالم الطبيعي تترك نفسها على سجيتها، أما في العالم المأهول بالناس، فمن المستحيل عليها أن تخطو خطوة واحدة من غير أن تؤذي أحدًا، أو يقوم على أذاها أحد.

وتغدو الحسناء شابة وضيئة، وتفارق المنزل. ماذا تعتزم أن تصنع؟

إنها منذ مدة غير قصيرة تتلقى خطابات وردية مكتوب عليها "يحفظ بشباك البريد"؛ خطابات موضوعها هو سرها الخاص الذي لم تطلع عليه إلا صديقتين أو ثلاثًا..

لنا إذن أن نستنتج مطمئنين أنها غادرت البيت في طريقها إلى موعد.. موعد غرام!

خرجت الحسناء الشابة من البيت، وهي تتمنى أن يحس الليل بها، وأن يخفق قلب الهواء لمرآها وخطوتها، وأن النسيم الذي يحف بها في تخطرها يهدهدها ويغن لها الأهازيج، وأن النجوم في وميضها المتواطئ وغمزاتها الخفية تسر لأذنيها في هدأة الليل بحديث مكتوم لا تبوح به لأحد سواها.

في نفس الشابة الحسناء طموح وجداني؛ إنها تتمنى ألا تكون مرموقة كتلك الأشجار السامقة التي تحف بالطريق، وتلك الأسوار المزهرة التي تحف بالحديقة. ومثل كل شيء مرموق فوق هذه الأرض تقع عليه العين في الهواء الطلق لا كما يتخيله الذهن في لحظات الوحدة والانطواء.

تتمنى الحسناء الشابة هذا كله وهي لا تدري؛ فلو أنك وضعت أمام عينيها هذه الرغائب لأنكرتها ضاحكة، فذهنها فيما تعلم ليس مشغولاً

بشيء من هذا القبيل، ولكنها تشعر أن في هذا العالم الواسع أخًا لها لم تره بعد؛ أخًا يفهم وتدرب على فهمها منذ ولادته، يفهمها خيرًا مما تفهم نفسها، وقد أخذ نفسه بأن يكون مسؤولاً عنها إلى أقصى حدود المسؤولية وأن يرعاها. وإذا كانت تحب ما في الطبيعة من دفعات الحياة السليمة، فميزان الشعور بالطبيعة في داخلها. ولم تفكر لحظة واحدة في التخلي عن ذلك الميزان لتكون شيئًا آخر. إنها تريد أن تظل كما هي، وأن تتزود من الطبيعة بما يقوي إحساسها بالحياة وإقبالها عليها.

الأوان أوان الربيع، وأمسيات الربيع تحفل بالعجائز جالسات على مقاعد الحدائق، وفي نفوسهن شجن، يتطلعن إلى السماء الشاحبة في أسى وتحسر ويتبادلن الأحاديث في صوت جاف له صرير.

والشابة الحسناء تمضي في الطريق، وتمعن في المستنير. وها رجل يخرج للقائها قادمًا من اتجاه آخر؛ إنه بعينه ذلك الرجل الذي أعدته الطبيعة للقائها. وهاهي ذي، وفي غمرة ما أحدثه اللقاء من نشوة لهما، تقول له وتعيد عليه القول إنها ما أتت إلا للقائه وحده.

والحسناء صادقة إلى حد ما في هذا المقال.

فمَن من الناس في ليالي الربيع لا يصلح لأن يكون أي شيء؟ وتنسى الحسناء الغاية التي من أجلها غادرت البيت، يتعقد ذهنها في نشوة اللقاء حتى ما تدري ماذا ينبغي أن تصنع بنفسها، ولكن قدميها تتذكران ما نسيه رأسها!

وتسير هي و هو جنبا إلى جنب إلى الأمام، في أي اتجاه حيثما اتفق.

يسيران معًا، وكلما أمعنا في السير أقبل نحوهما مزيد من الناس. ويزداد شعورها بالحب للرجل الذي التقت به حتى لتحس بروحها كلها منصرفة إليه، أنها تحبه من كل قلبها، ويلح عليها الإحساس بالسخط على قدميها اللتين لا تريدان أن تكفا عن السير إلى الأمام.

وتحملها قدماها قدمًا، إلى أن تتسع الطريق فجأة بعض الاتساع، ويبدو الموضع منعزلاً بعض الشيء، فيخامرها الأمل في نشدان الراحة قليلاً والنظر فيما حولهما من المشاهد والآثار.

ولكن غالبًا ما يحدث في بداية هذا الاستقرار، أو بعد قليل منه، أن يظهر فجأة شقيق الروح المجهول ويقول لها بلغة أو بأخرى:

– هأنذا، أنا هو أنت، أنا الذي تنشدين!

ثم يربطها إليه بوثاق لا تعرف هذه الدنيا أقوى منه ولا أمتن. ويمتنع على الحسناء أن تحس في أعماقها أنها أحبت في يوم من الأيام غير ذلك الحب. أن الذي سبقه لا وجود له، كان إرهاصًا به، كان بشيرًا يطرق مغاليق قلبها كي تفتح الأبواب للملك القادم.

فاجأت بداية شهر أبريل مدينة موسكو، وهي لم تزل تحت الملاءة البيضاء التي بسطتها فوقها نكسة من نكسات الشتاء.

وفي اليوم السابع من أبريل، بدأ الجليد يسيل مرة أخرى، حتى إذا كان اليوم الرابع عشر من الشهر، وهو اليوم الذي أطلق فيه ماياكوفسكي الرصاص على نفسها، لم تكن الأذهان قد تنبهت بعد إلى أن بواكير الربيع تطل عليهم من تحت ركام الجليد الذاهب.

وبمجرد وصول نبأ الفاجعة إلى سمعي، أرسلت إلى هناك أو لجاس؛ لأني أحسست أن الصدمة ستساعدها على التنفيس عن حزنها المكتوم.

وفيما بين الساعة الحادية عشرة والساعة الثانية عشرة، كانت موجات من الناس وزُرافات تتدفق لتضيف إلى ضخامة الحلقات المحيطة بمكان الانتحار.

واهتزت أسلاك التليفون، تنقل النبأ إلى كل مكان، فيعلو الشحوب الوجوه، ثم يصل قادمون جُدد يندفعون مذهولين إلى ممر لوبياتسكوي، ثم يعبرون الفناء ليدخلوا البيت الذي لم يكن في سلمه الكبير موضع القدم؛ لأن الجيران تجمعوا هناك مختلطين بالقادمين من المدينة، وكل منهم يكفكف دمعه، ويتزاحمون بالمناكب أو ينتحبون مستندين إلى الجدران.

وعند وصولي إلى هناك، أقبل نحوي شرناك ورومادين – وهما اللذان أبلغاني نبأ الكارثة بالتليفون– وكانت معهما زوجتي زنيا؛ وما أن وقع بصري عليها حتى انفجر أساي المكتوم، وأخذت عضلات خدي ترتجف في تقلصات لا إرادية، وطلبت مني وهي تبكي أن أسرع بالصعود لألقي نظرة أخيرة على الفقيد.

ولكن في تلك اللحظة شوهدت الجثة محمولة، وهي مغطاة تغطية كاملة فوق محفة ينزلون بها درجات السلم.

وأسرع الجميع ينزلون مندفعين حتى سدوا علينا باب البيت، فلما استطعنا اختراق ذلك السيد البشري إلى الحديقة، كانت المحفة قد وصلت على الأعناق إلى البوابة الخارجية، ثم تبعناها في اتجاه هندريكوف.

وخارج البوابة كانت الحياة تجري في نسقها المعتاد؛ حياة لا اكتراث

فيها لشيء، فالوحول المتخلفة عن ذوبان الجليد تجعل السير شاقًا، كأنما الإنسان يتعلم المشي من جديد، والديوك تفتش بمناقيرها عن حبات ضالة، والأطفال يتصايحون في ألعابهم، فيعلو ضجيجهم على ضجيج المدينة.

وأخذ الترام عن كثب يصعد في بطء ربوة سفيفايا، كأنه عجوز متهالكة، وفي تلك اللحظات، خطرت ببالي أبيات من قصيدة ماياكوفسكي "السحابة"، وكانت بجواري س.. فمِلت فوق أذنها، وذكرتها بتلك الأبيات الثمانية التي يقول في مطلعها:

"أشعر بآنيتي تضيق عني..".

وسرت القشعريرة في جسمي، وتلاصقت شفتاي في مرارة، وخنقتني الدموع، فلم أستطع أن أزيد حرفًا واحدًا على ذلك السطر.. لقد ضاقت آنيته عنه حتى لفظها..

وعند طرف بناية هندريكوف، وقفت سيارتان خاليتان، وقد تجمع حولهما عدد كبير من أهل الفضول، وحماسة. ولم تكن غرابة أطواره إلا صورة الغرابة عصرنا.

وفي البهو، وقاعة المائدة، كان رجال كثيرون، وقوفًا، وجلوسًا، حاسري الرؤوس، أو على رؤوسهم القبعات وهم في حالة ذهول.

أما هو فكان راقدًا بعيدًا عنهم جميعًا، في حجرة مكتبه وكان الباب المفضي من البهو إلى حجرة ليليا مفتوحًا، وعلى عتبته وقف أسييف يبكي ويداه على وجهه. وفي أعماق الحجرة بالقرب من النافذة، وقف كير سانوف وقد توارى رأسه بين كتفيه، وجسده كله يهتز ببكاء صامت.

إن جو الحداد الذي يشبه الضباب القاتم، كان مخيمًا على كل شيء في الدار، حتى تلك الأحاديث القلقة التي تجري بصوت خفيض هنا وهناك. وفي لحظة من لحظات الصمت، دخل البواب يمشي في حذر، وفي يده محرفة، وأخذ يزيل السدود الشتوية عن النوافذ، ويفتحها في بطء، وهو يحاذر أن تحدث صوتًا.

وكان الجو في الخارج لم يزل يحمل برودة الشتاء، فلا يستطيع الإنسان أن يسير بغير معطف. وصياح القبرات والأطفال يبدو كأنه محاولات باسلة من الفريقين، وكل منهما يشجع الآخر على رفع عقيرته بالغناء والصياح.

وأقبل من حجرة الميت إنسان يسير على أطراف أصابعه، وسأل بصوت خافت:

– هل أرسلتم برقية إلى ليليا؟

وأجابته ل.ا. أن البرقية أرسلت فعلاً، وعندئذ انتحت بي زوجتي زنيا جانبًا، ولفتت نظري إلى الشجاعة الفائقة التي تحملت بها ل. ا. الكارثة المرفوعة، ثم أخذت تبكي، فضغطت على يدها بقوة لأشجعها، ولا لتمس في ذلك الضغط ما يمنعني من البكاء.

ونظرت من خلال النافذة المفتوحة إلى بعيد؛ فرأيت عدم الاكتراث الواضح يبدو على الدنيا الواسعة، أمام نظري، فها هي ذي الأشجار العالية، تقف في عدم مبالاة، والأزهار والبراعم الخضراء الجديدة تشق طريقها فوق الغصون باحثة عن الشمس. وأجهدت مخيلتي كي أتصور في هذه الساعة جو لندن. هناك على مسافة مئات الأميال وآلافها وراء تلك

الأشجار، هناك إلى حيث ينبغي أن يصل الآن ساعي البرق، حاملاً نبأ الفاجعة إلى ليليا.

وفي جو لندن الغريب المشبع بالضباب، ستشق الهواء صرخة، وستمتد يدان في اتجاهنا حيث نقف في موسكو؛ ثم يسقط الذراعان في يأس، وتسقط صاحبتهما مغشيًا عليها.

وملأت المرارة حلقي ولهاتي، واندفعت نحو حجرته مرة أخرى لا بكي ما شاء لي جزعي.

كان راقدًا على جنبه ووجهه نحو الحائط، مديد القامة كالعهد به، والملاءة البيضاء تغطيه حتى ذقنه، وفمه نصف مفتوح كأنه نائم.

إنه حتى في تلك الرقدة، مشيح عنا جميعًا في كبريائه المعهود، يشيح عنا كالعهد به، يهم أن يصل إلى شيء بعيد عن متناول أيدينا.

وذكرني وجهه بما كان عليه يوم أنشدنا القسم الأول من قصيدته "الصحابة"، وهو يومئذ يزهو بجماله في سن الثانية والعشرين، وكل ما عراه من تغير هو ذلك التخشب الذي يجمد الملامح، وهي في قبضة الموت التي لا تفلت فريستها.

وفجأة صدرت عن البهو حركة؛ وإذا أولجا فلاديمير وفنا صغرى شقيقات الفقيد، وقد سبقت أمها وأختها وشقت طريقها بين الناس وتركتهما وراءها تعولان بين زحام القادمين والواقفين.

دخلت أولجا المسكن في ثقة وضجيج، وملأ صوتها الهواء، ودخل

الغرفة يتقدم خطواتها بمسافة بعيدة. كانت تتحدث وهي تصعد السلم بمفردها؛ تحدث شخصًا ما بصوت مرتفع، ثم تبين لي أنها في الحقيقة توجه الخطاب بذلك الصوت الجهير إلى أخيها الراحل!

ثم رأيتها تشق طريقها بين الناس، وكأنها تخترق كومة من النفايات. ولما وصلت إلى باب أخيها، رفعت يديها ووقفت جامدة في مكانها، وصرخت بصوت ثاقب تردد صداه في أرجاء البيت جميعًا:

– فولودويا! فولودويا!

ومرّت على الأثر لحظة صمت خاطفة، ثم صرخت ثانية في تعجب واستنكار:

– ماله لا يجيب! ماله لا يتكلم! فولودويا! أجبني يا فولودويا..!

ثم ضربت رأسها بيديها وصاحت:

– ما أفظع هذا؟!

وتهاوت؛ فأسرع الناس إليها، وأخذوا يردونها إلى وعيها، وما أفاقت شيئًا ما حتى اتجهت في لهفة كالمنهومة نحو الجثمان المسجي، وجلست عند قدميه، وعادت إلى خطابه بصوت حاد مشدوخ.

وعندئذ حدث ما طال افتقادي له. انهمرت دموعي، كان من المستحيل أن أبكي هكذا في المكان الذي قتل فيه نفسه؛ لأن جو المأساة الذي يخلق الفجيعة ويشيعها، يملأ بالجزع آفاق النفس، أما هنا فكانت أخته أول من بكاه وندبه بأسلوبها الخاص وعلى سجيتها.. ندبته كما يندب الناس شيئًا عظيمًا خطيرًا، وعلى هدى تلك الندبة وعباراتها

الجازعة، يطيب للحزين أن يبكي، ولا يكاد يسأم البكاء أو يفرغ منه، كما يبكي ذو الحس شبع شجوه على نغمات أرغن ضخم تسري أنغامه العملاقة في خلايا الأعصاب.

بكت أولجا، وأبت أن تتعزى أو تكفكف دموعها، ظلت تندبه وتعاتبه عتابًا قاسيًا:

– نظمت لهم الأشعار السافرة!، وكانوا يضحكون، كانوا ينادونك ويستعيدونك ضاحكين، وقلبك يتمزق في داخلك، والمأساة تتجمع في أعماقك. لماذا لم تأت إلينا وتفتح قلبك يافولوديا؟

وكان صوتها أشبه الأصوات بصوت أخيها ماياكوفسكي، حين يستولى عليه السخط والاستنكار. وفجأة راحت تنشد كما كان ينشد تلك الأبيات التي خطرت لي، وأنا أتبع جثمانه إلى هنا:

"أشعر بآنيتي تضيق عني.. أشعر أن إنسانًا ينتزع نفسه لينطلق من داخلي.. رنين التليفون!.

مَن المتكلم ؟. أنتِ يا أماه؟

أمي..ابنكِ مريض مرضًا بالغ الروعة يا أمي!

أمي!. إن قلبه يتلظى ويحترق..

أخبري شقيقتيه ليوديا وأولجا أنه لا يجد لنفسه ملاذًا..".

ولم أطق بعد ذلك صبرًا.

وانطلقت هائمًا على وجهي، ولم أعد إلا في المساء.

وعندما عدت، كانوا قد أودعوه تابوته، بعد أن أدرجوه في أكفانه. وكانت الوجوه التي تملأ الحجرة صدر النهار قد اختفت، وحلّت وجوه أخرى محلها، وساد صمت، واستولى الهدوء النسبي على البيت، فلم يعد هناك أحد ينشج بالبكاء على وجه التقريب.

وعلى حين غرة، خُيل إلى أني أرى تحت نافذته في الخارج صورة حياته؛ تلك الحياة التي أمست الآن في خبر كان من بدايتها إلى المنتهى.

تمثلت لي تلك الحياة، كأنها ذلك الشارع الطويل الذي تحفة الأشجار العالية ممتدًا إلى أن يختفي عن أنظارنا؛ ولكنه يظل ممتدًا، وإن لم تدرك أبصارنا ذلك الامتداد.

وأول ما يلمح الإنسان في ذلك الشارع الطويل الظليل بناء ضخمًا للدولة. كان إحساس مایاکوفسكي بدولتنا قويًا راسخًا، وخامرني الشعور بصورة خفية قوية أن مایاکوفسكي كان على نحو من الأنحاء المواطن الفريد في دولتنا؛ دولتنا التي تجمع بين مملكة الفن ومملكة الأرض ومن عليها من الناس.

كانت الحياة الجديدة الصاعدة تجري في دمه بقوة وحماسية، ولم تكن غرابة أطواره إلا صورة لغرابة عصرنا غير المستقر؛ عصرنا الذي نصفه قديم ونصفه جديد. نصفه لم ينعدم ونصفه لم يوجد على حقيقته الكاملة بعد.

وأخذت أتذكر لمحات من طبعه واستقلاله؛ وهو في كل أحواله أصيل تام الأصالة، وما كان يعتريه من أهوال نفسية متقلبة، إنما هو صدى لأمور عصرنا المتقلب الذي لم يصل إلى سواء النضوج.

كان مُدللاً منذ طفولته، وله المستقبل الذي سيطر عليه منذ بكورة صباه من غير مشقة.

حصل على كل شيء؛ ولكن ذلك المجد لم يجده، لأن آنيته كانت تضيق به.. وضاقت به إلى أن لفظها.

الفهرس

مقدمة ٥

القسم الأول: أنوار الصباح ١١

القسم الثاني: رَأدُ الضُّحى ٥٣

القسم الثالث: وَهْج الظَّهيرة ١١٥